اقرأ

حلمي سلام

إني صاعدة







بأسلوب اليوم وتفكير الغد

علوي سلام

إلى صاعدة ..

حياة ومذكرات شابة
مرهفة الإحساس - شديدة الألم

اقرأ ٣٤٣
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٣ — يوليو سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

إنى صاعدة

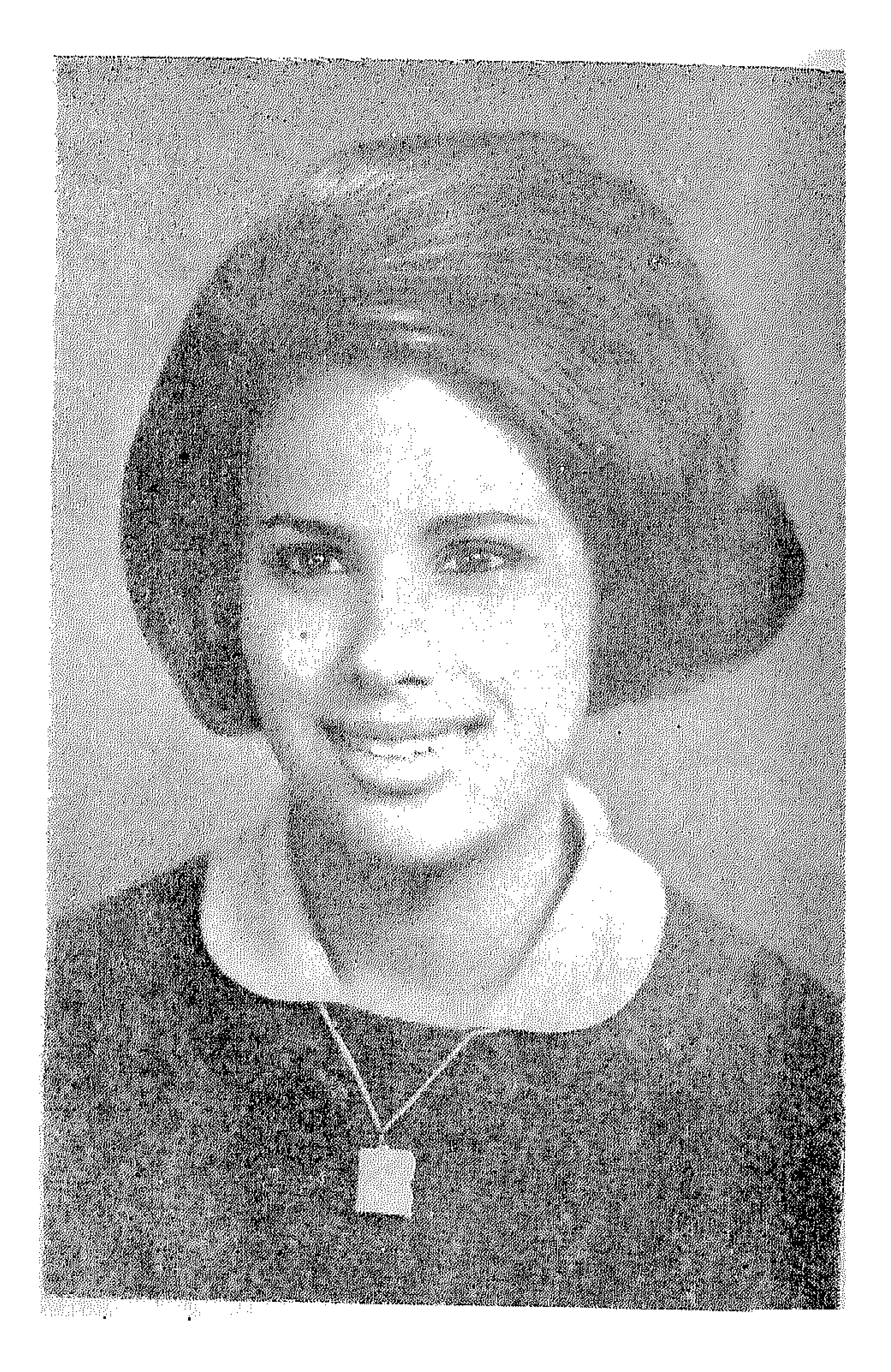
أماه . . ما أحلى اللقاء !
إنى أسمع الصوت البهير
وإشارة الملكوت نحوى والنفير
أماه .. هذا الضوء من ربى القدير
ونداؤه : ليلى هبى من نوم صغير
ليلى . . اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
أماه . . إنى صاعدة . . أماه إنى
فى حبور
أماه . . لا تبكى . . فنى جناته
أحيا وأطير

" نادية "

(من مذكراتها الخاصة ـ سنة ١٩٦٤)

إني صاعدة

إن اللوحة الجميلة لا تبدو على حقيقتها إلا إذا نظر إليها الإنسان من بعيد .. وقد ابتعدت عنا " نادية " أشد ما يكون الابتعاد . . فكانت رؤيتنا لها واضحة أوضح ما تكون الرؤية . .



نادية : عشرون سنة . . . والحياة رحلة
استكشاف مستمر معظم مايستكشف فيها أليم . . ! !

إهداء . . .

إلى أمها . . .

إلى « شجرة الحب » التى لا ينحسر لها ظل ، ولا ينفد لها زهر . . ولا ثمر . إلى التى استطاعت — بجماع فضائل الأم .. وتضحياتها ، وشجاعتها ، وإيمانها وصبرها — أن تصبح تجسيداً حياً ، وباهراً ، ومذهلا ، للقول المأثور: « الجنة تحت أقدام الأمهات» .

نعم «الأم » ... نهراً فياضاً يغدق الحب بغير حساب . .ونعم « الجنة » جزاء لهذه " الأم" الكبيرة . . الكبيرة . . التى أعطت الحب — أنقى الحب — للحب فى ذاته . . وأعطت التضحية — أغلى التضحية — للتضحية فى ذاتها بغير تطلع إلى ثواب ، وبغير خوف من عقاب .

إليها . . أقدم هذه الصفحات من حياة زهرتنا الحبيبة « نادية» . . . وهى صفحات بعضها منها ، وبعضها عنها .

لعلها ــ جميعاً ــ أن تنزل برداً وسلاماً
على قلبها الجريح الذى أعلم عمق
جرحه ، لأنه نفس جرح قلبى . لكنه :
على شدة عمقه وإيلامه ، لن يعز ــ
بالإيمان ــ على الشفاء . .

حلمى سلام

مقدمة

بقلم : الأستاذ فتحى رضوان

" ماري بشكر تسيف" .

ذكرت هذا الاسم ، فيما أهم بالإخلاد إلى النوم . . بعد يوم مملوء بالجهد النفسي . . والعناء العصبي . . وحاولت أن أتابع الخواطر التي يبعثها هذا الاسم فى رأسى ، فإذا هي تنقطع كما ينقطع الخيط الواهى فى يد ملولة لا تقوى على الصبر .

ونسيت الاسم . . ولم تعد خواطره تفد إلىّ ، ونسيت معه هذه الصفحات التى أقدم لها بهذه السطور . . وفجأة ، وعلى غير انتظار . . وبلا تمهيد ، إذا باسم " ماري بشكر تسيف" يعود إلىّ . . وإذا به يعود إلىّ فى اللحظة نفسها التى كان قد طرق فيها باب ذاكرتى منذ أيام لم تكمل الأسابيع .

لقد ذكرته ، وأنا أهم بالإخلاد إلى النوم . . فإذا بالنوم يهرب من عينى . . وإذا بى أشد ما أكون تنبهاً . . وإذا بى أسير فى هرولة إلى مكان ما من المكتبة . . وإذا بيدى تمتد إلى موضع منها لتأخذ كتاباً أفتحه ، فأرانى أمام مقال عن مذكرات " ماري بشكر تسيف" .

وأخذت الكتاب فعبرت المقال من أوله إلى آخره فى سرعة خاطفة ، وكأنى أود أن أقطع طريقاً قبل أن يلحق بى لاحق !

وفرغت من المقال فى دقائق . . . ثم وضعته إلى جانبى وأنا فى حال لا أستطيع أن أصفها . . حال فيها حزن ، وفيها راحة ، وفيها رضى

عميق ، وفيها تمرد محكوم ومضغوط عليه . ورحت أسائل نفسى :
هل تعارفتا . . . ؟ هل عرفت الشابة المصرية التى ودعناها كأندى ما تكون زهرة من زهرات البشر . . وأنقى ما تكون نفساً من نفوس الناس — هل عرفت الشابة الروسية التى عاشت ، وتألمت ، واستسلمت للأحلام ، وتنقلت كالنحلة بين الزهور . .؟ !
لقد عاشتا نفس العمر : عشرين عاماً . . ثم عدداً آخر من الأشهر. وقالتا نفس الكلام . . وكانت لهما نفس المواهب . فهل تعارفت نفساهما على البعد ؟ أو أنهما جاءتا إلى دنيانا ، وانصرفتا عنها دون أن يقوم بين قلبيهما رباط يجمعهما ؟
إن الأولى — وهى الروسية — جاءت وذهبت قبل أن تولد الثانية ، بل قبل أن يولد أبواها ، بل ربما قبل أن يولد جداها . فقد ماتت "مارى" فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، فى حين ماتت « نادية» فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ — ولكن . . ما أضعف الزمان حاجزاً بين النفوس ، وما أضعف المكان فاصلا بين القلوب . فالنفوس لا تتخاطب ، والقلوب لا تتناجى ، كما تتصل وتتحدث الألسنة . . وكما تتخاطب وتتقارب الأبدان .

إن الذين ذهبوا . منذ عشرات القرون ، يعيشون معنا بما قالوا . . وبما تركوا من شعر ، وفكر ، وفن . . . إنهم يؤثرون فينا كما لا تؤثر فينا آلام اليوم وأوجاعه ، ومسراته ، وأفراحه .
فما أعمق القلب الإنسانى من كنز للمشاعر ، والعواطف ، والأفكار ! !
وما أعمق النفس الإنسانية من بئر للأحلام ، والخواطر ، والصور ! !
« ماري بشكر تسيف » الروسية التى ولدت فى روسيا . . وعاشت ، وماتت فى باريس . . بكل ما فكرت فيه ، وخافت منه ، وتاقت إليه . . كانت شقيقة « نادية حلمى سلام» بكل ما خطر على بالها ، وساور



خيالها . وأهمها . وألهمها . وأحزنها . وأفرحها . . ! !

صحيح أن « ماري » كانت ثمرة مجتمع أغنى من مجتمع « نادية » ثقافة وفناً . . وأن الأولى كانت أكثر استجابة لأشواق البدن . وأعظم تمرداً على قيود الروح . . في حين كانت الثانية راهبة من راهبات التصوف المتدفق من ينابيع قلبها الشرقي المسلم . . فهي لا تلعن البدن . ولا تسب الدهر ، ولا تفيض روحها بالتشاؤم القاتم . ولكن ، ما أتفه الفارق بين القوالب . . فالإنسان يكون شاعراً دون أن ينظم بيتاً واحداً . . ويكون مصوراً دون أن يمسك الفرشاة مرة واحدة . . ويكون خطيباً فصيحاً دون أن يفتح فمه بكلمة . إن الشاعر ، والكاتب ، والمصور ، والخطيب ، هم أولا – وقبل كل شيء – نفوس تحس ، وتتوق إلى التعبير عن نفسها . . وقد يكون أحسن ما تتركه للناس هو ما تعجز عن التعبير عنه بالكلمة . أو باللحن ، أو باللون . . فما حرك نفوس البشر شيء كما حركها الكلام الذي لم يقله الشعراء . والكتاب ، والخطباء . . . الكلام المقروء بين السطور . . الكلام الغامض الذي لم ينجل بعد . وأحسن الصور ما رآه الناس خلف صور الفنانين الكبار . . يرونها بالبصيرة ، لا بالبصر . . ويحسونها بالوجدان ، وإن كانوا لا يلمسونها بالأيدي .

ومن هنا . كانت « نادية » . . و « ماري » شقيقتين ، وإن عبرت كلتاهما عن نفسها بأسلوب مختلف . ولكن ، يكفي أن تقول كلتاهما عبارة واحدة مشتركة . . . عبارة غنية فياضة . . حتى تعرف أنهما زهرتان في بستان واحد .

* * *

ولقد تركت لنا كلتاهما مذكرات . . فأصبح في مقدورنا أن ننقل النظر بين هذه المذكرات ، وتلك ، لنرى أنهما – « نادية » . و « ماري » – لم تتشابها في السن التي تركتا فيها دنيانا . . ولا في المذكرات التي خلفتها

كل منهما فحسب ، ولكن . . فى الخواطر ، والأحاسيس ، والمشاعر.
وإليك هذا الذى قالته « مارى » بعد أن قرأت قصة الاستيلاء على « طروادة » فى ملحمة « هوميروس » .

● « لم تترك مأساة حديثة . . ولا قصة مهزلة مما كتب « دوماس » ، أو « جورج صاند » فى نفسى ذكراً باقياً . . ولا أثراً عميقاً صريحاً كالأثر الذى تركه فيها وصف الاستيلاء على « طروادة » . فإنى أشعر أنى شهدت هذه الفظائع . . وسمعت تلك الصيحات ورأيت النار وهى تشتعل . وإننى كنت — وأسرة بريام — مع أولئك التعساء الذين كانوا يختبئون وراء محراب القرابين التى كانوا يتقربون بها لآلهتهم لتكشف عنهم النيران الملتهبة فى مدينتهم ، ولا تسلمهم إلى أعدائهم . . وأينا لا تعروه هزة حين يصل من قراءته إلى طيف كروز؟ »

ثم إليك ما قالته « نادية » ، وقد فرغت من قراءة قصة حياة « فان جوخ » :

● « إنى لعمرى ما تجاوبت مع شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة تقطر أسى ومرارة . . فقد أحسست بالكره الشديد ، بل بالمقت

„ بالحوجان„ : فقد أحسست : وأدركت . أن هذا الملعون كان هو السبب فى أول نوبة أصابت„ فان جوخ„. لقد شعرت بالرعدة تسرى فى أوصالى . . وبالخوف يزلزل كيانى مع كل نوبة كانت تصيبه . وتمنيت لو أنى كنت بجانبه . فلربما كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً ».

ولعل هذين الاقتباسين قد بينا ما أقصده من أن الفتاتين كانتا روحين توأمين . على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى اختلاف الجو . والبيئة . والظروف . هذه تقرأ„ هوميروس„ الإغريقى . . وتلك تقرأ عن„ فان جوخ„ فى الفرنسية . . ولكنهما تتأثران بما تقرآن تأثراً واحداً . وتعبران عن تأثرهما بعبارة تكاد تكون واحدة .

● "فارى" تقول : « إنها لم تتأثر بشىء بقدر ماتأثرت بقراءة مأساة. أو فاجعة الاستيلاء على طروادة » .

● و„ نادية„ تقول : « لعمرى ما تجاوبت مع شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة„ فان جوخ„ » .

● و„ مارى„ تقول : « يخيل إلى أنى شهدت هذه الفظائع ، وسمعت تلك الصيحات ، ورأيت النار وهى تشتعل » ! !

● و„ نادية„ تقول : « لقد شعرت بالرعدة تسرى فى أوصالى ، وبالخوف يزلزل كيانى مع كل نوبة من نوبات " فان جوخ " » .

حساسية مفرطة . . وقدرة على التعبير فائقة . . ونسيان للنفس مع الصور المتخيلة ، والاستغراق فيها ، والاندماج معها .

هذا الخيال الغني المديد ، يعبر عن نفسه عند كل منهما بطريقته الخاصة .

● « ماري » تقول : « آه . . لو كنت ملكة » . . . ثم تقول : « أريد أن أكون قيصراً . . أو أغسطس . . أو ماركوس أوريليوس . . أو نيرون . . أو الشيطان . . أو البابا ! ! »

● أما « نادية » فتقول :

« أحس أنني أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . . ولكن ، ماهو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله ؟ ليست عندى أية فكرة عنه .

« فأحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون « ناسكة » .. وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعاً .. وأحياناً أتمنى لو أنى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . . أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها » .

وكلتا الفتاتين تغفو فى صحوة النهار ، وتفيق كل منهما من غفوتها ، وتتساءل : « ماذا حدث» ؟ .

تقول « ماري» فى مذكراتها فى يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ :

● « إننى أسعل الوقت كله برغم

حرارة الجو . .وقد أخذتني سنة من
النوم على المتكأ عصر اليوم ، فرأيت
نفسي نائمة وإلى جانبي شمعة موقدة ..
أتراني أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » .

وتقول « نادية » في يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٢ :

● « يوم رائع من أيام الربيع ..
رائحة الورد تملأ الجو من حولي .. ولكن
على الرغم من هذا اليوم الرائع من أيام
الربيع . . ومن رائحة الورد التي
تعبق الجو من حولي ، أشعر بحزن عميق
يجتاحني . . لماذا ؟ لا أدري . . يخيل
إلى أنني أبحث عن شيء ضائع » .

تلك تستيقظ لتتساءل : « هل أموت ؟» . . وهذه تتنبه لتقول :
« هل ضاع مني شيء . . وماذا يكون»؟ . وحينما يتساءل الإنسان :
« هل ضاع منه شيء» هو لايدريه . . يكون هذا الشيء، عادة ،
هو الحياة نفسها . .! !

والموت لفظ يتردد في مذكرات « ماري بشكر تسيف» . . وفي
مذكرات « نادية سلام» على السواء . . وإن كان ذكره يأتي بنغمتين
جد متباينتين . فإنهما . في الواقع ، تصدران عن فكرة واحدة . .
وعن إحساس واحد .

ويجب ألا ننسى أن «ماري» كانت مصدورة ، وأن مرضها الشديد
كان يحمل إليها مع كل نسمة هواء تدخل إلى رئتيها المريضتين اللتين
تأكلهما العلة بلا رحمة ، إنذاراً بالموت . . وإشارة إليه . . وتحذيراً منه .

فى حين كانت « نادية » – وهى تكتب مذكراتها – مملوءة بالصحة . . فياضة بالحيوية .

● تقول « مارى » : « أترانى أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » ثم تضيف : « والموت كلمة سهلة حين نقولها ، أو نكتبها . لكن التفكير فى أمرها ، والاعتقاد بأن الإنسان يموت عاجلا . . هل ترانى أعتقد ذلك ؟ إنى أخشى . . . . . . » .

هذه الخشية تتردد أصداؤها أيضاً عند « نادية » ، فهى تقول فى مذكراتها فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ : « إننى أشعر بالخوف من المجهول الذى تربص « لفان جوخ » يؤرق مضجعى » .

وكل منهما كانت تسمع الأصوات ، والهواتف ، التى يجسدها لها خيالها .

تقول « مارى » فى مذكراتها فى أول يونية سنة ١٨٧٦ :

● « الساعة . . وأنا خارجة من غرفة زينتى مر بى طيف مفزع ، فقد رأيت إلى جانبى امرأة فى ثوب أبيض طويل ، تحمل النور فى يدها . . وتنظر إلى وقد أحنت رأسها على مثال طيف أساطير الألمان » .

وتقول « نادية » فى مذكراتها ، فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ ، التى نقلنا عنها من قبل :

● « لقد شعرت بالخوف وبالرهبة تهددنى . فالمخاوف ، والهتافات التى

كانت تنادى " فان جوخ" تناديني أنا أيضاً . . إنى أسمعها سمعاً حقيقياً لا خيالا » .

* * *

وتطارد مشكلة " الألم" الفتاتين الصغيرتين اللتين منحهما الله إحساساً مرهفاً ، وشعوراً بأحزان الآخرين ، وآلامهم ، فوق ما تطيقه النفس الإنسانية الغضة

فتقول " نادية " :

● « لماذا حكم على الفنانين بالتمرغ فى أحضان الجوع والألم ؟! لقد وضح الجواب من حياة « فان جوخ » . وهو أن الألم النابع من أعماق الفنان نفسه ، أو الذى ينعكس عليه من أعماق الآخرين ، هو الذى يزيد من رقة إحساسه »

● أما « مارى» فتقول : « لماذا يخلقنا الله لنتألم ؟ . . وإذا كان الله هو الذى خلق العالم . . فلماذا خلق الألم ؟ ! »

إن النفس الرقيقة ، الحساسة ، التى لا تدع شيئاً يمر بها دون أن يترك على لوحتها الشفافة أثره البالغ العميق ، هى نفس تصاب — عادة — بالسأم والملل ، لأنها لا تكف عن الركض ، من الصباح إلى المساء ، وراء كل صورة ، وخاطرة ، وفكرة . . . ووراء كل حدث مفرح أو مؤلم . . ثم ترى فى النهاية . أنه ليس من وراء كل هذا شيء باق . .

أو شيء مفهوم . . أو شيء يستحق العناء .

* * *

● ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : « في أوقات الفراغ » عن " ماري بشكر تسيف " نقلا عن كتاب : « الحياة الأدبية في باريس » للكاتب الفرنسي " أناتول فرانس " :

« كان رأسها مخزناً تختزن فيه مختلف الكتب والروايات من غير ترتيب . وكانت دائبة السياحة : تذهب من نيس إلى روما .. ومن روما إلى باريس . . ومن باريس إلى بطرسبرج ، وفينا ، وبرلين . وكانت لا تستقر أبداً ، فقد كانت السآمة تتولاها أبداً . . . وكانت ترى حياتها خلاء ، حتى كانت تقول : في هذا العالم كل ما ليس أليما سخيف . وكل ما ليس سخيفاً أليم ! »

ولكن " نادية " لا تشوب نفسها هذه المرارة التي يبعثها الألم . . . وهي ليست قلقة قلق الشك الصارخ ، بل هي قلقة قلق القلب الباحث عن الإيمان . لذلك يجيء تعبيرها عن " السأم " أحلى مذاقاً ، وأجمل وقعاً ، وألطف نبرة ، ففي مذكرتها عن يوم ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ — نجدها تقول :

● « إنني أفكر الآن في أشياء كثيرة أراها تصيبني بالملل . . . فالذهاب إلى المدرسة أمله .. والبقاء بالبيت أمله .

والروتين يكاد يقتلنى . . وأعتقد أننى
لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأنى
أموت موتاً بطيئاً ! ! »

الرغبة فى الموت هنا . . والخوف من الموت هناك .. كلاهما شعور واحد ، وإن ظهرا كالنقيضين . . فالتشبث بالحياة حب لها ، وحرص عليها . . والاستخفاف بالحياة . . لا يصدر إلا عن فرط حيوية . فالضعاف من الناس : الذين لا يجدون فى الحياة ما يثيرهم ، ويحرك خواطرهم ، ويلهمهم ، لا يرد لفظ الموت على ألسنتهم قط .. ذلك لأنهم موتى إلى الحد الذى لا يشعرون معه بأنهم أحياء ! !

* * *

ومأساة المرأة الذكية ، المتوقدة ، الطموح عندما تصطدم بمشكلة الزواج . . هى مأساة حقيقية . . لأن المرأة الذكية هنا ليست أنثى فحسب . وإنما هى أنثى مدركة لوجودها . . وليس من السهل عليها الاندماج والفناء اللذان يتطلبهما الحب ، ثم الزواج . تقول « نادية » فى مذكرة التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ :

● « كنت اليوم أفكر فى الزواج . .
ما هو ؟
« إنه فى نظرى ليس نهاية الآمال
بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً
قاتلها ! !

« ولنأخذ حالتى مثلا : فتاة شابة .
تعشق الخيال ، وتعشق الكتابة ، وتعشق
القراءة ، وتعشق الموسيقى . . . ماذا

يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة لو
أوقعها القدر في « مصيدة الزواج » ؟ »

ويزداد شعور « نادية » بقسوة مصير المرأة . . وتقارن بينها وبين الرجل . . فتقول :

● « إن الرجل يستطيع دائماً أن
يعيش حياته . . يستطيع ، لو أراد ،
أن يخصص حياته لرغباته ، وآماله ،
واختياراته . . . أما المرأة ، فإنها —
برغم كل شيء ... وبرغم كل ما وصلت
إليه — ما تزال مخلوقاً ضعيفاً ! ! »

ولم تتحدث « ماري » عن الزواج كنظام . . إلا أنها تحدثت عن الزوج المرشح لها ، فقالت :

● « لو أصبحت زوجته . . إذن
لقضيت علي ثروته ، ومتاحفه ، وقصوره .
فإن لى ، من الطمع ، والكبرياء ،
مالا حد له ، والعجيب أن يحب شخص
مخلوقاً ذاك شأنه ، لا لشيء إلا لأنه
لا يعرفه » ! !

« ماري » تصل — بطريقتها الخاصة — إلى نفس النتيجة التى تصل إليها « نادية » بطريقتها الخاصة أيضاً . « نادية » تعلن أن الزواج كله بالنسبة لها مستحيل . . . و « ماري » ترى أن زواجها من هذا الذى أظهر لها الحب مستحيل . . . وتسخر من إنسان يحبها ، وهو لا يعرفها . .

وتضيف : « أواه لو عرفت هذا المخلوق ... » ؟ فهى : على فرط حساسيتها وحبها للحياة ، لا تتحدث عن الحب حديث العشاق الوالهين . . ولا تحرق الورق بحرارة آهاتها . . فهى تحب شيئاً أكبر : وأوسع ، وأعلى . . . إنها تحب الحياة كلها حباً عميقاً وعنيفاً .. وتدفع عن نفسها الموت . وتصرخ وهى تراه يدهمها :

● « إننى أرى الحياة طيبة . فهل يظن ذلك أحد ؟ وأجد كل شىء فيها طيباً ولذيذاً . . . حتى الدموع ، وحتى الألم . . . إننى أحب أن أبكى ، وأحب أن أيأس . . . أحب أن أكون حزينة آسية . . إننى أحب الحياة على الرغم من كل شىء !! » .

ويقول مؤرخو حياة « مارى بشكرتسيف » إنها – فى سنة ١٨٧٧ – استبدت بها شهوة واحدة وقفت لها كل وجودها . تلك هى شهوة « التصوير » وجمعت له كل كنوز ذكائها المشتتة . . .واجتمعت عنده كل آمالها فى المجد . ولم يبق لها من حياتها إلا غاية واحدة . . هى أن تكون « فنانة كبيرة » .

أما « نادية » فإنها تقول فى مذكراتها : « إن هوايتها هى القراءة . . ثم القراءة . . ثم القراءة » .

وتكشف « نادية » عن سر عشقها للقراءة ، فتقول :

● « أما الذى يزيدنى تعلقاً بها فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى أن أحقق فيه . فإن هوايتى . . بل أمنيتى . . أن أصبح كاتبة مرموقة . والاطلاع . .

المزيد من الاطلاع . . هو الوسيلة
الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ، ما دامت
الموهبة لا تنقصنى – وهى لا تنقصنى » .

هذه تريد أن تكون « مصورة عظيمة » . . . وتلك تريد أن تكون « كاتبة عظيمة » وكلتاهما تبذل كل شيء فى سبيل تحقيق هذا الأمل ، وتلك الأمنية .

* * *

ويقول مؤرخو حياة " ماري بشكرتسيف " أيضاً : « إن شيئاً ما كان يقف حائلا بينها وبين شرور العالم البوهيمى الذى كانت تحياه بقوة وتطرف . فلقد كانت تحياه بفكرها ، لأنها كانت تؤمن بأن فى " الفكر " شيئاً أكبر من العاطفة نفسها . . . عاطفة أعمق من العاطفة ، فهى على الرغم من انفصالها الحقيقى عن العالم البوهيمى الذى كانت تعيش فيه . . وعلى الرغم من ترفعها الرومانسى عن الأحداث اليومية العابرة ، كانت تعيش فى قلب عصرها . . بل فى البؤرة المحرقة منه . »

وكذلك كانت " نادية " . . . لقد كانت تؤمن « بالفكر » إيماناً لا حد له . . كانت تؤمن به كقيمة عظمى . . . قيمة أكبر من كل القيم . . هى تكشف لنا فى مذكرة يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ ، عن هذا الإيمان العظيم « بالفكر » كقيمة أكبر من كل القيم – فتقول :

● « إننى أحب كثيراً أن أبقى
وحدى . . . أفكر لنفسى . . وأتكلم
مع نفسى . . إن التفكير يكاد يقتلنى .
لكننى – وهذه هى مشكلتى –
لا أستطيع أن أعيش بغيره . . إن
" التفكير " هو حياتى » .

لقد كانت " ماری " — كما يقول مؤرخو حياتها — تعيش فى قلب عصرها، بل فى البؤرة المحرقة منه — وهذا بدوره، ما ينطبق بالضبط على " نادية " . فعلى الرغم من أنها تقول فى مذكراتها : « إنها تحب أن تبقى وحدها .. تفكر لنفسها، وتتكلم مع نفسها » ، نجدها — وتماماً كما كانت تفعل " مارى "—تعيش فى قلب عصرها .. وفى البؤرة المحرقة منه .

ولست أعرف « بؤرة محرقة» أشد إشعالا لوجدان الإنسان العربى — فى الفترة التى كان وعى الصغيرة " نادية "، وعقلها يتفتحان على مشكلات عصرها — من « ثورة الجزائر » ، وما كان يحدث فيها . . وما كان يحدث لها : ومنها . . !

وفى قلب هذه «البؤرة المحرقة» . . . كانت " نادية " تعيش بفكرها كله . فنراها تمنح « ثورة الجزائر» من ذاتها ، كل الحب . . . وكل الحماسة . . وكل ما تقدر عليه من عطاء . فهى ، فى المدرسة الفرنسية التى كانت تتلقى فيها تعليمها الإعدادى والثانوى ، تثور على معلمتها من أجل هذه الثورة . . وتحدث أزمة شديدة تدخل فيها وزير التعليم طرفاً من الأطراف . وهى ، مع نفسها ، تكتب عن هذه الثورة القصص . وتنظم الشعر، وتتغنى به ، تحية لشهدائها . . ثم هى تحب — وإلى حد العشق — كل كاتب فرنسى حر كانت تراه يمنح « ثورة الجزائر » من نفسه ، ما تمنحه هى لها من نفسها. وهى لا تكتفى بهذا كله ، بل تذهب بها حماستها لهذه الثورة ، وحبها لها ، إلى حد أنها كانت « تتمنى » — كما تكشف لنا عن ذلك قصتها المعنونة : « أمنية» ، المنشورة فى هذا الكتاب — أن تذهب إلى هناك . . إلى « البؤرة المحرقة» التى كانت تعيش ، « بفكرها» ، فى قلبها . . أجل ، لقد كانت " نادية " تتمنى أن تذهب إلى الجزائر . . . فتقاتل، مع أولئك الذين كانوا يقاتلون . . وتعذب مع

أولئك الذين كانوا يعذبون . . . وتستشهد مع أولئك الذين كانوا يستشهدون!

* * *

لقد ماتت " ماري" في الحادي والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، وهي ما تزال في الرابعة والعشرين من عمرها .

وماتت " نادية" في التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ ، وهي ما تزال في الثانية والعشرين من عمرها . . . . ففرق بينهما الزمن بنصف قرن كامل . . . ولكنهما ، مع ذلك ، اجتمعتا معاً . . . اجتمعتا معاً عندي . . . واجتمعتا معاً في هذه المقدمة . . وستبقيان مجتمعتين في ضمير التاريخ . . . تاريخ الإنسانية وأدبها .

ولقد حزن الناس في باريس حينما نشرت مذكرات " ماري بشكر تسيف" ، لأول مرة ، في أوائل القرن العشرين . . . وسوف يحزن الناس حينما يقرءون مذكرات " نادية حلمي سلام" عند نشرها . ولكن ، لماذا لا أحس أنا أن " ماري" أو " نادية" . . قد تركتا دنيانا هذه قبل الأوان : . أو أن حياتهما لم تكتمل ؟ !

إني أراها حياة كاملة . . بل لعلها كانت تنقص لو أنها طالت ، ثم استحالت إلى حياة عادية كحياة الملايين من الناس . .

إن حياة كل من الأديبتين الشابتين نموذج فريد في لونه . . نموذج يمنح الإنسان في كل مكان ، وكل زمان . . ثقة بالإنسان ، وإعجاباً بمواهبه التي لا حد لها ، واعتزازاً بطموحه الذي لا يتوقف عند شيء ، وبقدرته على أن يجعل من الحياة نفسها عملا فنياً رائعاً ، ومؤثراً ، ونافعاً ، وموحياً ، وباعثاً على الرجاء والأمل .

إن حياة الإنسان — أي إنسان — لا تقاس بالأمتار . . ولا بالأرطال ولا بالأرقام . فإن الأشياء الباقية في حياة الإنسان ، قليلة العدد . . وصغيرة الحجم . . بحيث قد تمر أحياناً دون أن يلتفت إليها أحد ،

ثم لا تلبث ، مع هذا ، أن تغير معتقدات وتصورات الملايين على مر الزمان .

فلم يكن فى وسع أحد ، فى الإمبراطورية الرومانية ، أن يتصور أن هذا الشاب الصغير الفقير الذى اجتمع حوله عدد من الصيادين الفقراء قادر على أن ينشئ عالماً جديداً .. وأن يثل عروشاً ، وأن يطلق ثورات ، لمجرد قوله من فوق تل فى أرض فلسطين : « أحبوا أعداءكم .. باركوا لاعنيكم . . صلوا للذين يسيئون إليكم !! » .

ولم يكن فى وسع أحد ، فى العالم بأسره ، أن يتصور أن هذه المعركة الصغيرة فى موقع مجهول ، فى صحراء جدباء ، اسمه : « بدر » يمكن أن تنشئ حضارة ، وأن تطلق الطاقة الإنسانية فى اتجاه لم تعهده . وبقوة لم تعرفها ! !

كذلك " مارى " . . و " نادية " . . لا نرفعهما فوق قدرهما ، ولكنهما ، بالصفحات التى تركتاها لنا — وإن كانت صفحات قليلة — قد منحتا الأدب فى اللغة التى كتبت كل منهما بها ، شيئاً ممتعاً . . وجديداً . . وجديراً بالتأمل والالتفات .

إن هذه الصفحات التى تركتها كل منهما وراءها ، تعلن لنا : أن الحياة التى نحياها لا يصنعها فقط المشهورون الذين تغمرهم الأضواء ، والذين نعرفهم بالأسماء . . وإنما يشارك فى صنعها ، ويضيف إليها ، ويجمل فيها ، مجهولون ، وصغار ، ماتوا ، أحياناً ، وهم لا يزالون فى بداية العمر . لكنهم — وإن جهلناهم — قد قالوا ، وفعلوا فى المحيط الذى عاشوا فيه ما لن يفنى أبداً .

لقد كنا ، من قبل ، نظن أن صوتنا الذى يخلخل الهواء يموت إذا ما تجاوز آذاننا . . فجاءت فتوحات العلم لتثبت لنا أن هذا الصوت يبقى . . وأنه قادر على أن يقطع آلاف الملايين من الأمتار ، ليصل

من أقصى الأرض إلى أقصاها . . لو وجدت الأداة التى تلتقطه .

وما حياة " نادية" إلا موجة من هذه الموجات . . . موجات النور التى تتدفق بها الحياة لتبقى فى حياة الناس . . تدفع بهم إلى أعلى ، وتدفع بهم إلى الأمام ، وتزيدهم حباً فى كل ما هو سام ، ونقى ، ورفيع . محلقين فوق آلام الدنيا . . منطلقين إلى عالم غير منظور . . ولكنه نظيف ، وفسيح ، وعظيم .

لقد جعلت " نادية" من قولها : « إنى صاعدة إلى السماء » شعارها الذى رددته كثيراً ، فى مواقع كثيرة من مذكراتها .

والسماء هنا ليست هذه القبة الزرقاء التى أثبت العلم أنها لا شيء . . وأنها لا تحجب شيئاً . وأنها مجال غير محدود . . مجال لا نهائى للصعود والإرتفاع !

إن « السماء» هى هذه الآمال التى صاحبت الإنسان فى تطوره، وتدرجه ، وكفاحه . . والتى عذبته ، وأرقته ، وهى هى التى قوته ، وثبتته ، وهونت عليه التضحية .. والعذاب . . والألم !

« إنى صاعدة إلى السماء» . . . .

ما أحلاه شعاراً يليق " بنادية" . . وتليق به .

فتحى رضوان

التاسع والعشرون من يوليو سنة ١٩٦٩ — يوم ككل الأيام التى مرت بنا من أشهر سبعة سبقته . سحقتنا حتى العظام . . . يوم مشحون بالجزع : وبالقلق . وبالألم . وبالخوف من المجهول الذى أخذ يكشف عن وجهه شيئاً فشيئاً حتى لم يعد مجهولا . أما بالنسبة لها . فقد كان هذا اليوم شيئاً آخر . . . كان يوماً بلا غد .

فلقد كانت تعشق الهدوء ... ولأنها كانت تعشق الهدوء ؛ فقد انتظرت حتى مات النهار . . حتى هدأ كل شىء . وكل شخص . . . حتى سكنت الحركة ، ونامت الحياة ، ثم . . . ثم ذهبت . ريانة كالربيع . . نقية كالفجر . . طاهرة كالندى .

لم أكن بجوارها فى اللحظة الخارقة التى ذهبت فيها عنا . . وأيضاً لم أكن بعيداً عنها . كنت على قيد خطوتين منها أريح جسدى المنهك الذى هدمه القلق عليها فى حين كانت أذنى معلقة بنبضات قلبها الذى كان فى الأيام الأخيرة قد أخذ يدق فى عنف مسموع : كأن بداخله طيراً يرف . محاولا — بكل ما لديه من جهد واهن — ، أن يحطم السجن الذى يغلق عليه أبوابه ، وينطلق إلى عالم أرحب وأوسع . . وكانت حواسى كلها معلقة بهمساتها . لكنها — ويا للهدوء الذى كانت تعشقه — استطاعت أن تمرق كالنسيم من بيننا ، فلم يشعر بها حين فارقتنا أحد . فقط ، طلبت من "شجرة الحب" التى كانت تنام فى حبات عيونها — طلبت منها جرعة ماء . وظنت أمها أن جرعة الماء التى طلبتها منها "نادية" إنما هى كأى جرعة ماء أخرى طلبتها من قبل .. وأنها طلبتها لتروى بها ظمأ أحسته ؛ وليس لكى تتزود بها للرحيل عن حياتنا هذه إلى حياة أخرى . . « حياة أفضل . . حياة أكثر شفافية ،

وأكثر نقاء» على حد تعبيرها هى فى قصة كتبتها : ولم تكن قد جاوزت ، بعد ، الرابعة عشرة من عمرها .

* * *

وجاءتنى أمها حيث كنت أرقد مفتوح العينين والأذنين معا . . جاءتنى متسربلة بأقصى الهدوء ، معتصمة بأنبى الإيمان ، ولكن . . كان هناك مع هذا الهدوء ، وذلك الإيمان — بحران من الدموع يجريان على خديها . . . جاءت توقظنى لكى أقاسمها النار التى اندلعت لتلتهم قلبها — لتقول لى إنها . . . إن زهرتنا الحبيبة قد سئمت المعركة . . وإنها قد ألقت سلاحها . . . وذهبت . . . ذهبت لكيلا تعود .

ولا أدرى ، الآن ، من منا كان يتوكأ على الآخر ، ونحن ننتزع خطانا انتزاعاً متجهين نحو الفراش الذى أراحت عليه " نادية" جسدها المثخن بالجراح ، بعد معركة طويلة ، خاضتها بكل بسالة شبابها ضد المرض الذى لم يشأ أن يكون رحيماً بها ، فأسرف — غاية الإسراف— فى قسوته عليها . ولكن الذى أدريه ، يقيناً ، أننا نحن الاثنين — أمها وأنا — كنا نتوكأ على إيمان بالله لا حدود له . . . وأن هذا الإيمان بالله هو وحده الذى عصمنا من السقوط فى هاوية الحزن الطاغى الذى يتفجر فى مثل هذه اللحظات الحارقة كأنه طوفان مجنون يجتاح أمامه كل شىء . . . يجتاح الثبات ، ويجتاح العقل ، ويجتاح الرشد ، ويجتاح الإيمان نفسه .

لم تستطع الضربة القاصمة التى نزلت بنا أن تذهب بشىء من رشدنا . كنت قادراً على أن أنظر فى وجهها الزكى الصبوح . وأن أتأمله ، وأن أنحنى عليه لأقبله فى خشوع لم يمنعنى من أن أشم رائحة قلبى الذى أخذ يحترق .

وكانت " أمها" قادرة هى الأخرى على أن تفعل نفس الشىء . . . لم تشهق ، ولم تصرخ . . لم تلطم خدودها ، ولم تشق جيوبها . . لم يصدر

عنها أى صوت ، من أى نوع ، يمكن أن يزعج زهرتنا الحبيبة وهى فى نومها الأبدى . . . وإنما فيض من القبلات : الغارقة فى الدموع أخذت تغمر بها جبينها ، ووجهها ، ويديها ، وكل جزء فى جسدها الغض الذى ما عمّ — وهو لا يزال فى ريعان ربيعه — أن ذبل وذوى .

* * *

ولا أدرى – فى غمرة الحزن الطاغى الذى ابتلعنى فى تلك اللحظة الحارقة – لا أدرى كيف قفزت أمامى صورتها وهى جالسة معى ذات مساء فى شرفة منزلنا ، وكانت قد تركت وراءها فراش المرض بعد سبعة أشهر أليمة . . وأخذت تصعد سلم الشفاء بخطى لم تكن سريعة ، لكنها كانت ثابتة ومبشرة — أو هكذا حملنا الأمل على جناحيه فخلناها كذلك .

كان حديثنا فى تلك الأمسية ، يدور حول نزول أول إنسان على سطح القمر . . كانت ترى فى هذا النزول إنجازاً إنسانياً مذهلا . . . وبينما نحن آخذون فى هذا الحديث ، وفيما سوف يكشف عنه المستقبل فى مضمار السباق نحو القمر : إذا بها فجأة تحول مجراه وجهة أخرى لم أكن أتوقعها منها ، ولم تكن لتخطر لى على بال — سألتنى :

— بنفسى أن أسألك سؤالا . .

— اتفضلى . .

— هل الناس الكويسين لما بيموت عندهم حد — هل بيصوتوا عليه ؟

وانقبضت نفسى انقباضاً شديداً لهذا السؤال الذى فاجأتنى به . . وزاد من انقباض نفسى أنه لم يكن هناك — لا من الحديث الذى كان يجرى بيننا . . . ولا من الجو الذى كان يحيط بنا — ما يمكن أن يوحى إليها به . ومع ذلك : كتمت عنها — وبصعوبة بالغة — الانقباض الذى أطبق على صدرى كأنه كابوس طاغ . . وسألتها بدورى :

ـ الناس الكويسين دول زى مين ؟

وبدون أدنى تردد من جانبها . . . وكما لو كان الجواب جاهزاً على طرف لسانها قالت :

ـ زينا مثلاً . .

قلت :

ـ اللى زينا ما يصحش أبداً يصوتوا على حد يموت عندهم .

لقد أدهشنى سؤالها عندما فاجأتنى به . . . وأدهشنى أكثر أنه كان غريباً تماماً على موضوع الحديث الذى كان يدور بيننا . لكن الذى أدهشنى أكثر من هذا وذاك ، هو ذلك التهلل العجيب الذى رأيته يملأ وجهها كله عندما سمعت منى الجواب : « بأن الناس اللى زينا ميصحش يصوتوا على حد يموت عندهم » .

لقد أحسست بها ، ساعتها ، كما لو كانت تريد أن تقول : « الحمد لله » .. وربما لم يمنعها من قولها إلا إشفاقها علىّ . . أو ربما لم تشأ أن تقولها حتى لا تشى بما كان يدور فى أعماقها ولا تريد أن تكشف عنه . . واكتفت بأن علقت على إجابتى بقولها :

ـ أنا برضه بأقول كده .

لا أدرى كيف تذكرت فى هذه اللحظة الحارقة . . لحظة الصمت الخاشع الذى انتابنى وأمها ، ونحن واقفان فوق رأسها ـ ذلك الحديث الذى دار ذات مساء بينى وبينها وكيف أنها كانت حريصة ـ دون أن تفصح ـ على ألا يصوت عليها أحد . . وكيف أننا ـ وبإلهام من الله سبحانه ـ قد نفذنا لها وصيتها التى لم تفصح عنها . فلم ينطلق فوق رأسها صوت ولا صرخة . . . بل لقد كانت أصوات الموسيقى . . موسيقى الصباح التى كانت من أحب الأشياء إلى نفسها . . تنطلق من أجهزة الراديو بيوت جيراننا .

وحدنا . . وحدنا تماماً . . كان علينا أن نواجه هذه اللحظة الأليمة . . بل البالغة ذروة الألم فى حياة الناس . لحظة أن يمد الموت يده ، بكل القسوة واللامبالاة ، إلى قلب الإنسان فينتزع قطعة منه . . يأخذها ويمضى ، ثم يترك القلب ينزف دماءه حتى يأذن الله لجرحه بالالتئام . وقد يطول الزمان كثيراً قبل أن يكف الجرح عن نزف دمائه . ويتوقف ذلك على طبيعة الإصابة نفسها . . فليس من يصاب بجرح فى قلبه ، كمن يصاب بجرح فى أصبعه .

* * *

وتعاونّا — أمها . . . وأنا — فى تبديل ملابسها . وفى إعدادها لاستقبال أولئك الذين سوف يأتون مع الصباح ليقوموا بتجهيزها للقاء ربها . .
وألقينا على وجهها الذى ظل صبوحاً برغم الموت . . زكياً برغم السقم — ألقينا على هذا الوجه الزكى ، الصبوح ، وشاحاً لعانا قصدنا أن يكون شفافاً ، حتى لا يحجبه عنا . ثم . . ثم عدنا إلى الله .

تناول كل منا مصحفاً كريماً ، ورحنا نقرأ معاً . . وفوق رأسها . السورة الحبيبة إلى قلبها . . . السورة التى تعودت — من سنين بعيدة — ألا تنام قبل أن تقرأها . . " سورة يس " . . ثم رحنا نتنقل فى الكتاب الكريم من سورة إلى أخرى : قلوبنا مع القرآن . . وعيوننا مع القرآن . . . ودموعنا معها . . مع الملاك المسجى بيننا .

وبقينا هكذا ؛ حتى طلعت الشمس . . شمس أول صباح يطلع علينا ؛ منذ اثنين وعشرين عاماً ، بدونها .

وهنالك . . وضعنا المصحفين الكريمين حول رأسها . عن يمين وشمال ، ورحنا ننتظر .

* * *

وفجأة ، ومن خلال الدموع ، وجدتها تتداعى أمام عينى . . صوراً لا حصر لها :

● صورتها وهى تسقط فريسة لمرض خطير أرهق طبيبها الأستاذ الشاب الذى تدين له قلوبنا بالعرفان بأنه كان يخوض المعركة ضد ذلك المرض الخطير بكل ما فى أعماقه من شرف الإنسان ، وأمانة العالم ، وبسالة الطبيب ، حتى تمت له محاصرته والانتصار عليه . لكن إرادة الله فى النهاية ، كانت فوق إرادته . . فوق علمه ، وبسالته . وأمانته . . . فوق إرادتنا جميعاً .

● صورتها وهى تقاوم المرض الذى هاجمها ، فى عنف وقسوة ، بشجاعة باهرة لم يكن أحد يعرفها ، إلا ويعرف أن هذه الشجاعة الباهرة كانت واحدة من أبرز خصائصها .

● صورتها وهى تمد ذراعيها فى صبر ورضى شديدين — وعلى مدى أشهر سبعة بلغت من القسوة ذروتها — لتأخذ حقنتين كل ثلاث ساعات ، حتى جفت أوردتها تماماً ، وحتى أصبح العثور على وريد صالح لاستقبال جرعة الدواء المقررة معضلة تحتاج من معالجيها إلى حذق شديد ، وتحتاج منها إلى صبر أشد . كان الطبيب الجراح ذو القلب الكبير الذى أربى على الستين — يخشى عليها من أن يصيبها انهيار عصبى نتيجة لتقارب مواعيد حقن المضادات الحيوية : حقنتان كل ثلاث ساعات ، طوال الأربع والعشرين ساعة . فلم تكن تكاد تنام ، حتى تعود فتصحو . . .ولا مفر .

وكان الطبيب الباطنى — فى الوقت نفسه — يخشى إن هو باعد بين مواعيد الحقن بحيث يسمح لها بأن تنام ، كما كان يطالب بذلك الجراح ذو القلب الكبير ، أن يتمكن ذلك الميكروب اللئيم الذى غزا دماءها

من أن يحدث بأجهزة جسمها الداخلية : قلبها . . ورئتيها . . وكبدها ، ما أحدثه خارج جسمها . . فيصيب هذه الأجهزة "بخراريج" كتلك التى أصابها بها من الخارج ، والتى كانت آلامها منها تبكى الجراح نفسه !

وبين هاتين الخشيتين : خشية الطبيب الجراح . . . وخشية الطبيب الباطنى . . كانت هى تبدى من شجاعة الاحتمال ما كان مثار دهشة أطبائها وإعجابهم .

كان أطباؤها يرونها صغيرة بالنسبة لقوة الاحتمال التى كانت تبديها .. كانوا ينظرون إليها نظرة هى مزيج من الدهشة . والإعجاب . والألم . . . بعضهم كان يخرج من عندها وقد اعتصرت آلامها قلبه . . . وبعضهم كان يخرج من عندها مشدوهاً بشجاعتها وقوة احتمالها . . والجميع كانوا يجهلون سرها .

* * *

كان سرها فى صلابتها . . . وكانت صلابتها هذه — فى ناحية من النواحى — بعضاً من تركيبها . . وكانت — فى ناحية أخرى — انعكاساً لإيمانها العميق بالله. وربما لم يكن أحد من أطبائها مستعداً لأن يصدق أن هذه المريضة الصغيرة جداً .. والقوية جداً فى الوقت نفسه . . كانت مؤمنة بالله إيماناً لا يحده حد .. . وأنها حينما كانت لا تزال طالبة فى الصف الأول الثانوى ، كانت حريصة حرصاً خاصاً على أن تفتتح كراساتها المدرسية بآيات من القرآن الكريم لا يختارها لها أحد . . . وإنما كانت تختارها بنفسها لنفسها . . وبوحى من إيمانها الخالص بالله . وكتابه ، ورسوله .

● فهذه كراسة تفتتحها بالآية الكريمة : « وإذا سألك عبادى

عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » .

● وهذه كراسة ثانية تفتتحها بالآية الكريمة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

● وهذه كراسة ثالثة تفتتحها بالآية الكريمة : « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» .

وهكذا فى جميع كراساتها . . . .

كل ذلك . . . وهى لم تتجاوز ، بعد، الرابعة عشرة من عمرها . . سن اللهو ، واللعب ، والعبث . . . وأكاد أقول سن الجهل بالله ، وبكتاب الله ، وبتوجيهات الله .

كل ذلك . . . وهى تتلقى تعليمها فى مدرسة فرنسية ، وعلى أيدى راهبات فرنسيات كانت تحبهن، وتحمل لهن إعجاباً كبيراً ... إلا أنها، مع ذلك، لم تكن مستعدة، للحظة واحدة ، لأن تتنازل عن شىء واحد من معتقداتها الخاصة فى سبيل هذا الحب ، وذلك الإعجاب .

فلقد حدث مرة أن كانت واحدة من هؤلاء الراهبات تحدثها وزميلاتها فى المدرسة عن الفظائع التى ارتكبها النازيون ضد الفرنسيين أثناء احتلالهم لفرنسا فى الحرب العالمية الثانية . . . وأسهبت الراهبة الفرنسية ــ مدفوعة بمشاعرها الخاصة نحو ما حدث لوطنها ، ولمواطنيها على أيدى النازية الغاشمة ــ أسهبت فى تبيان صور هذه الفظائع . . وفى تعديد ألوانها . حتى إذا انتهت من كلامها ، رفعت الطالبة الصغيرة بعمرها ، الكبيرة بمواهبها ــ رفعت يدها طالبة الكلمة ، فلما أذنت لها الراهبة الفرنسية بها . . فاجأتها قائلة :

● أريد أن أسأل : هل ترين ثمة فرق بين هذه الفظائع التى حدثتنا

عنها الآن ، والتى ارتكبها النازيون
ضدكم فى أثناء احتلالهم بلادكم ،
وبين ما ترتكبونه أنتم اليوم من فظائع ضد
الوطنيين فى الجزائر — أليست هى بعينها
نفس الفظائع ؛ إن لم تكن أبشع ؟ ؟

وفوجئت الراهبة الفرنسية بالسؤال . . . . وفوجئت أكثر بنوعيته . . وأفقدتها المفاجأة قدرتها على التصرف بالمرونة الواجبة فى موقف كهذا الموقف . . فطلبت إليها مغادرة الفصل فوراً !

ورفضت " نادية" أن تنفذ الأمر . . وأشهرت فى وجه الراهبة الفرنسية سلاحها الصلب الذى اعتادت أن تشهره فى مثل هذه المواقف — أشهرت فى وجهها سلاح « العناد» الذى لا يلين . . وصممت ، من ناحيتها ، ألا تغادر الفصل ، لأنها ترى أنه لم يصدر عنها ما يسوغ طردها منه .

وكانت أزمة صاخبة . . تدخلت فيها مديرة المدرسة — وهى راهبة عجوز .. كبيرة القلب والعقل معاً — وكانت تعجب بفتاتنا كطالبة لامعة ، وتحمل لها تقديراً خاصاً . واستطاعت مديرة المدرسة أن تنجح فى إقناعها بمصاحبتها إلى مكتبها لتبقى به قليلا ريثما تهدأ العاصفة . . وخلال ذلك ، حاولت « الراهبة الأم » أن تقنع " نادية "بالاعتذار لمدرستها عن إحراجها أمام زميلاتها الطالبات . . إلا أن ذلك كان مطلباً مستحيل التحقيق بالنسبة لإنسانة ما تعودت أن تعتذر إلا عندما تكون على يقين من أنها أخطأت . ولما كانت موقنة من أنها لم تخطئ ، فقد صممت على عدم الاعتذار . . وفضلت أن تغادر المدرسة كلها عائدة إلى البيت لتطرح

علينا، بلا أية زيادة أو نقصان ، كل ما حدث منها . . وكل ما حدث لها .

ورأيت أنه من واجبي . . كمصري وكأب – أن أبلغ وزير التربية والتعليم – وكان وقتئذ المربي الجليل أحمد نجيب هاشم – بالمسألة كما وقعت . فأوفد من فوره مندوباً إلى المدرسة ، حيث قام هناك بتحقيق انتهى باعتذار الراهبة الفرنسية للطالبة الصغيرة الكبيرة، وليس العكس كما كان مطلوباً . ودخلت " نادية " فصلها مرفوعة الرأس . . تسبقها كرامتها التي كانت تعتز بها إلى حد التطرف الذي كان يجر عليها الكثير من المتاعب .

● وتتوارى هذه الصورة . . صورة الطالبة الصغيرة، الكبيرة ، التي تحمل بين جنبيها شعوراً وطنياً فياضاً يعلن عن نفسه في شجاعة ، ويصمم على ما اقتنعت به في حزم . . . ولا يكترث ، في قليل أو كثير . بمن يرضى ومن يغضب – تتوارى هذه الصورة من أمام عيني لتحل محلها صورة أخرى . . . صورة الإنسانة المرهفة الحس إلى حد لا يكاد يصدق . . . إلى حد أجمع معه أطباؤها على أن حساسيتها المفرطة هذه هي التي أورثتها مجموعة الأمراض التي تجمعت عليها . . وأنها هي – أعني حساسيتها المفرطة – كانت السبب المباشر في وقوعها فريسة سهلة لذلك المرض الخطير الذي استطاعت أن تنجو منه ، ولكنها لم تستطع أن تنجو من الآثار النفسية الذي خلفها في أعماقها . وإلى حد كبير كان ذلك صحيحاً ، فقد كانت مرهفة الحس إلى حد كان يرهقنا نحن أكثر مما كان يرهقها . . . كانت مرهفة الحس إلى حد

كان يجعلها تحتضن آلام الآخرين وتتبناها ، وتعيشها . فى دفتر مذكراتها الخاصة الذى عثرنا عليه بعد أن كانت قد بارحت حياتنا هذه إلى الحياة الأخرى التى وصفتها – وهى ما تزال فى الرابعة عشرة من عمرها – بأنها: « الحياة الأفضل . . والأكثر شفافية ونقاء » . وبتاريخ الخميس ٧ فبراير سنة ١٩٦٤ – كتبت " نادية " تقول :

● « بكيت اليوم فى الفصل كثيراً . وكنت أحس ، طوال الوقت ، أن يداً من حديد تقبض على قلبى فتعتصره عصراً . فقد علمت أن " كورين " – صديقة السنوات التسع فى المدرسة – سوف تتركنا إلى إيطاليا . إننى حزينة جدًّا لفراقها ؛ فليس من السهل علىّ أن أجد صديقة فى نقائها . لكننى ، فى نفس الوقت ، فرحة من أجلها . فإن مصر لم تعد مكانها الطبيعى . وكانت " كورين " ، فى الأيام الأخيرة ، عصبية جدًّا ، ومضطربة ، وحائرة . . وأعتقد أنها كانت على حق . على كل حال ، فبرغم حزنى الشديد لفراقها . . أشكر الله كثيراً الذى هيأ لها كل الأمور لكى تستقر ، وتهدأ ، وتعثر ، أخيراً ،

على سعادتها المفقودة . إننى أتمنى لها
حياة هنيئة بين أهلها فى إيطاليا .
أما أنا ، فأشعر بأننى فقدت صديقة
لن أعوضها ، وسأظل دائماً أفتقدها .
ولكن ، هذه هى سنة الحياة » .

* * *

. . . وفى الوقت الذى تسجل فيه " نادية " شعورها « بأن يداً من حديد تقبض على قلبها فتعتصره عصراً حزناً على فراق صديقة السنوات التسع فى المدرسة » — نلتقى بها فى صفحة أخرى من مذكراتها ، وهى تكاد تترنح سعادة ، لأنها نجحت فى أن تدخل السعادة على قلب إنسان آخر . . . فتقول فى مذكرة يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ :

● « أنا سعيدة اليوم . . سعيدة
جداً . . إذ نجحت فى أن أجعل
إنساناً آخر يشعر بالسعادة . لقد
قال لى : شكراً جزيلا ، ثم ابتسم
ابتسامة ملأت وجهه كله.. وبدا لى
كأنه لم يكن يتوقع منى الثناء على
قصيدته التى كان قد أعطانى إياها
لكى أبدى رأيى فيها . وفى خلال
الحديث قال لى إنه نظم قصيدة
جديدة . وقد شجعته على أن يبعث
بإنتاجه إلى الصحف اللبنانية .

لقد أطاعنى كما لو كان طفلى .
وكما لو كنت أنا مسئولة عنه ،
ولقد ملأنى هذا الشعور بالفخر. .
فكم هو رائع أن تشعر المرأة بأن
رجلا يحتاج إليها . . إلى عقلها . .
احتياجاً حقيقياً . لقد قررت أن
أواصل تشجيعى له . . . إننى يجب
أن أدفعه لكى يقهر تردده : ويتغلب
على عدم ثقته بنفسه . . وهو شىء
يكاد يقتله ، ويقتل معه مواهبه » .

* * *

وهكذا نرى أن الحساسية . . . الحساسية بغير حدود كانت داء " نادية " ودواءها معاً . فى الوقت الذى نراها فيه تكاد تذوب حزناً لأن صديقة تحبها سوف تفارقها . . نراها فى موضع آخر تكاد تطير سعادة لأنها نجحت فى أن تسعد إنساناً آخر . . ولأنها استطاعت أن تجعل « الابتسامة » تقفز إلى وجه ذلك الإنسان فتملؤه .

ولقد ذكرنى صديق عزيز بواقعة حدثت له معها ، كنت قد نسيتها . . وتذكرها هو حينما أعطيته أصول هذا الكتاب ليقرأها قبل أن أدفع بها إلى المطبعة .

فى صيف سنة ١٩٦٢ كانت " نادية" عائدة معه بصحبة أسرته من بورسعيد ، ومعها « شغالتنا » الصغيرة . . وفى الطريق من بورسعيد إلى القاهرة، توقفت الأسرة عند أحد المطاعم المنتشرة على ذلك الطريق لتناول الغداء . . وهبطت "نادية" معهم . ولكن الصديق نسى

« الشغالة » الصغيرة فلم يدعها مثلما دعا الجميع لتناول الغداء . . ثم نسي أن يرسل إليها ، حيث بقيت فى مكانها من السيارة ، شيئاً تأكله .
فماذا كان رد الفعل عند فتاتنا التى اعتادت أن تعيش أحزان الآخرين وأفراحهم ، وكأنها أحزانها الخاصة وأفراحها ؟

لقد اعتذرت عن تناول الطعام ، على الرغم من أنها لم تكن قد أفطرت . . . وعندما عاد الجميع إلى السيارة لمتابعة رحلتهم إلى القاهرة لاحظ الصديق أن " نادية " قد صامت عن المشاركة فى أى كلام !

ولما أن وصل الجميع إلى بيتنا ، غادرت « نادية » السيارة دون أن تسلّم أو تشكر ، الشيء الذى جعل صديقنا يشعر بأن شيئاً ما قد حدث جعلها تتصرف على هذا النحو الذى لا يتفق وما يعرفه عنها . . لكنه لا يعرف ماهو هذا الشيء؟

وصارحنى الصديق العزيز بما وقع من " نادية " وسألنى : « هل عرفت لماذا حدث هذا ؟ » . لكن " نادية " لم تكن قد أفضت إلىّ بشيء من كل ما حكاه لى صديقنا ، فاستمهلته حتى أسألها . . ثم أجيبه عن سؤاله .

وسألتها . . . . وكعادتها من الصراحة والصدق ، لم تنكر شيئاً مما وقع — قالت لى :

نعم لقد رفضت أن أتناول طعام الغداء . . . ورفضت بعد أن عدنا إلى السيارة أن أشارك فى أى كلام . . . ورفضت حين وصلنا إلى المنزل أن أسلم أو أشكر . كل هذا حدث . ولكن ، لم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً غير ما فعلت .

— ولكن . . لماذا هذا كله ؟

— بصراحة . . لأنه لم يدع « الشغالة » لتناول الغداء . . ولم

يرسل لها فى السيارة شيئاً تأكله .. وقد فكرت للحظة أن أرسل إليها مع الجرسون على حسابى الخاص شيئاً تأكله. لكننى عدت فعدلت عن هذه الفكرة ، لأننى خشيت أن ترى فيها جرحاً لمشاعر صديقك .. وفكرت . للحظة أخرى ، أن أنبهه إلى وجود « الشغالة » فى السيارة . وإلى أنها مثلنا تماماً . لم تتناول طعام الإفطار . لكننى خشيت أن أحرجه مع نفسه. فعدلت عن هذه الفكرة أيضاً .. ولم يكن أمامى . لكى أرضى نفسى. إلا أن أشارك «الشغالة » الصغيرة جوعها .

قلت متسائلا :

— والصيام عن الكلام ؟

قالت :

— كان نتيجة طبيعية لما حدث. لقد غامت نفسى. وأنا لا أقدر عندما تغيم نفسى أن أكلم أحداً ، ولا أن أرد الكلام على أحد .

ونقلت إلى صديقنا الصورة كما صارحتنى بها " نادية " .. فلم يسعه إلا أن يعتذر ، وهو يضيف :

— ولكن هذه حساسية قاتلة !!

قلت :

— أنا معك فى هذا ... ولكن. هكذا خلقت ... ولاحيلة لنا معها . كما لا حيلة لها مع نفسها .

* * *

وإن نسيت ، فلن أنسى صورتها يوم حملت إلينا صحف الصباح ذات يوم ، ذلك النبأ المشئوم بسقوط الطائرة التى كانت تحمل فريق السلاح المصرى فى المحيط ، وهى فى طريقها إلى أمريكا . لقد كنا ساعتها جالسين على شاطىء البحر فى الإسكندرية ... وكأى فتاة فى مثل عمرها ، كانت " نادية ". فى تلك اللحظة ، تعيشه قمة سعادتها

ومرحها . . إلى أن شد النبأ الأليم انتباهها إليه ، فإذا هى تفقد كل سعادتها ، وكل مرحها دفعة واحدة . . . ثم انخرطت فى بكاء مرير استغرقها ساعات طويلة ، وكأن كل واحد من أولئك الأبطال الذين ابتلعهم المحيط كان شقيقها أو قريبها . . . على الرغم من أنها لم تكن تعرف منهم أحداً . . ولم تكن قد قابلت منهم أحداً !

وعبثاً ذهبت كل محاولاتنا للتخفيف عنها . . فقضت يومها كله مستسلمة لحزن طاغ منعها من كل طعام ، وكل شراب . لقد استطاعت من خلال وعيها المبكر ، أن ترى الكارثة التى أصابتنا بفقد أولئك الأبطال فى حجمها الحقيقى، وهى أنها « كارثة وطنية » ، ليس من السهل تعويضها . لقد حدث لها هذا فى الوقت الذى مر فيه آلاف من الفتيات ، ممن هن فى مثل عمرها ، بذلك النبأ الأليم دون أن يتوقفن عنده . . أو لعلهن قد توقفن عنده لحظات لم تكن كافية لأن تذهب بشىء من سعادتهن ، ولا من مرحهن . !

* * *

وما حدث لها بسبب سقوط طائرة فريق السلاح فى قاع المحيط ، تكرر حدوثه لها . . . وبالصورة نفسها . . . يوم لقى السباح العربى «محمد زيتون» مصرعه فى حادث سيارة حينما كان فى طريقه إلى الإسماعيلية للاشتراك فى سباق قناة السويس الدولى . لقد حزنت " نادية " الحزن نفسه ، وبكت البكاء نفسه . . . وكنا نحن الذين نعرف أثر مثل هذه الأحزان الكبيرة والمفاجئة على صحتها ، نشفق عليها منها كل الإشفاق . لكننا لم نكن نملك ، إزاء طبيعتها التى نعرفها ، إلا أن نتركها لأحزانها حتى تستطيع هى أن تنتزع منها نفسها بنفسها .

* * *

سألتني في أثناء حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وبعد أن سمعت المذيع يقول : « إن قواتنا تحارب ، الآن ، على خط الدفاع الثانى » :

— ماذا يعنى المذيع « بخط الدفاع الثانى » ؟

قلت :

— يعنى العريش . . .

قالت :

— معنى هذا أن سيناء كلها سقطت .

قلت ، والمرارة فى حلقى . . وعلى لسانى :

— نعم . . . هذا هو معنى الخبر .

وما هى إلا لحظة حتى قد كانت انفجرت فى بكاء هستيرى لم نستطع أن نخفف منه ، ولا أن نتغلب عليه ، إلا بإعطائها منوماً أنامها حتى صباح اليوم التالى :

ولذلك . . . فإنه لما استشهد الفريق عبد المنعم رياض فى فبراير سنة ١٩٦٩ ، وكانت ما تزال فى سرير المرض بالمستشفى ، كان همنا كله منصرفاً إلى منع الصحف عنها . . . وإلى التنبيه على ممرضيها وزائريها بأن لا يأتى أحد منهم على ذكر هذا النبأ أمامها . . . وقد ظلت على غير علم به حتى غادرت المستشفى إلى البيت . . . فقد كنا ندرك — من خلال معرفتنا بها ، وبحسيتها التى عذبتها وعذبتنا — أن معرفتها بهذا النبأ ، وهى ما تزال راقدة فى سرير المرض . كان كان يمكن أن يتحول إلى ضربة قاضية كفيلة بأن تجهز عليها .

* * *

لقد كان عقلها الذى رأيناه يسابق عمرها ، ويتجاوزه ، ويتفوق عليه ، يضعها فى دائرة واسعة من الاهتمام بالإنسان ، وبقضاياه.

وبانتصاراته . ولم يكن اهتمامها هذا محدوداً بوطنها ، ولا بالإنسان فى ذلك الوطن . . . بل كان اهتماماً إنسانياً واسعاً يتسع للإنسان من كل جنس ، ودين ، ولغة .

ولعل مجموعة من « الصور الفوتوغرافية » وجدناها تحتفظ بها بين أوراقها الخاصة ، تكون مؤشراً واضحاً لاهتماماتها ، ولطبيعة هذه الاهتمامات ، ونوعها .

فلمن كانت هذه الصور التى كانت « فتاتنا » تحتفظ بها بين أوراقها ؟

● لقد كانت هناك صورة « لجاجارين » أول رجل ارتاد الفضاء فى محاولة من جانب الإنسان للانتصار على الطبيعة ، والوصول إلى القمر .

● وثانية « لفالنتينا » أول امرأة ارتادت الفضاء مؤكدة بعملها هذا مساواة شجاعة المرأة بشجاعة الرجل .

● وثالثة « لمارتن لوثر كينج » الزعيم الزنجى المناضل عن زنوج أمريكا . . . وعن حقوقهم المشروعة فى الحياة ، والكرامة الإنسانية .

● ورابعة للشابة الجزائرية المناضلة« جميلة بو حريد » التى لقيت من ألوان التعذيب على أيدى سلطات الاحتلال الفرنسى لبلد المليون شهيد ، ما جعل منها مثلا رائعاً لكل الذين يحبون أوطانهم ، ولا يطيقون رؤيتها راسفة فى قيود الاستغلال والقهر .

● وخامسة للزعيم الجزائرى « أحمد بن بيلا » الذى قاد شعبه فى ثورة من أعظم ثورات الشعوب من أجل الحق ، والكرامة ، والحرية .

● وسادسة لأول راهب بوذى حرق نفسه احتجاجاً على حرب « فيتنام » التى أشعلتها أمريكا لكى لا تجنى من ورائها إلا أكثر الثمرات مرارة .

٤٨

إنها – كما ترى – مجموعة من الصور ليس بينها تنافر : ولا تناقض، ولا تباعد . . . فجميعها للإنسان ، وعن الإنسان . . . وجميعها تمثله فى أحسن صورة ؛ وأدقها تعبيراً عنه كقوة هائلة قادرة على قهر الصعاب ومغالبة التحديات التى قد تقف عقبة فى طريق مكاسبه وانتصاراته سواء كانت هذه التحديات من صنع الطبيعة ، أو من صنع الطغاة من البشر !

* * *

وكما كانت " نادية" قادرة ، بحساسيتها هذه ، على أن ترتفع بمشاعرها فوق عصبيات الدين ، والجنس ، واللغة . كذلك كانت قادرة ، بنفس هذه الحساسية ، على أن تسقط من حسابها عنصرى الزمان والمكان ، لتعيش آلام أناس لم ترهم ، ولم تعرفهم . . أناس عاشوا قبل أن تولد هى بعشرات السنين ، ومضوا عن الدنيا دون أن يجمع بينها وبينهم لقاء . ودون أن تنشأ بينها وبينهم صلة إلا صلة الإنسان بالإنسان .

فى هذه المذكرات نفسها — وجدناها تخصص ثلاث صفحات كاملة ، سجلت فيها مشاعرها الخاصة نحو مأساة الرسام الهولندى " فان جوخ " مما لقيه فى حياته من عذاب ، وجحود ، ونكران .

لقد مات " فان جوخ" قبل أن تولد " نادية" بنصف قرن ويزيد ، ومع ذلك ، كانت — فى ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ — ما تزال تحيا مع " فان جوخ" . . . تعيش عذابه . . وتتوجع من أجله . . وتتوعد الذين جحدوه ، وكانوا سبباً فى شقائه . . بأشد عقاب ! !

فتحت هذا التاريخ : ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ — كتبت " نادية" فى مذكراتها تقول :

« صهرتنى مأساة " فان جوخ" . .
بل أدمتنى ، وزادتنى خوفاً من المجهول .
ولست أريد بتلك الكلمات أن أتحول
إلى جوهر ذاتى . ولكن ، وددت فقط
أن أسجل أنى شعرت أنى جد قريبة
من هذا الرجل الفنان ... لا يفصلنى
عنه سوى خيط واه . . . أجل ،

فإنى أشعر أن ما يفصل بيننا هو ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الوجود والعدم .

« ولست أبالغ إن أنا قلت إنى شعرت بروحي تهفو إلى روحه . وتتجه إلى قبره ؛ وتحاول ، قدر استطاعتها ، تخفيف آلامه . . بل شقائه . ذلك الذى لم توجد بعد الكلمة التى تدلنا على مقدار عذابه ، وآلامه ، وجوعه ، وتعاسته ، وفقره ، وحرمانه ، وضياعه ، وبؤسه ، ومرارته ! !

« نعم . . أين هى الكلمة التى تجمع ، وتصهر ، كل هذه المعانى فى كلمة واحدة ؟ ؟

« لقد أحسست بالضياع ، وبالشقاء ، وأنا أقرأ . . . بل وأنا أحيا حياة "فان جوخ" — لقد مس قلبى فى قصة ذلك الفنان التعس المسكين ، العطف المتبادل بين الشقيقين "جوخ" و"ثيو" . . . لقد أكبرت كلا الأخوين.

« إنى لعمرى ما تجاوبت مع شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة تقطر أسى ومرارة . . . لقد أحسست بالكره الشديد . . بل بالمقت

" بلحوجان" . . فقد أحسست ، وأدركت أن هذا الملعون هو السبب فى أول نوبة أصابت " فان جوخ" . . . ثم إن هذا " الحوجان" ، الذى اشتهر بحب تعذيبه لأصدقائه ، هو الذى زاد الطين بلة ، فى الوقت الذى تعلق به " فان جوخ" لينتشله من مرارة الإخفاق التى كان يحسها ، ويتذوقها ، ويتخذها غذاء يعيش عليه .

« لقد كنت أشعر بالرعدة تسرى فى أوصالى ، وبالخوف يزلزل كيانى ، مع كل نوبة كانت تصيبه . وتمنيت لو أنى كنت بجانبه ، فلربما كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً .

« لقد أثر فى نفسى كثيراً أن هذا الفنان لم يقدّر إلا بعد أن طواه الموت . من منا يتخيل أن هذا الفنان العظيم لم تبع له فى حياته سوى لوحة واحدة ؟ من منا يصدق أن هذا الفنان العظيم لم يأخذ فى حياته . . ولم يتكسب من وراء لوحاته . . سوى عشرين جنيهاً فقط . . ؟ !

« كل ما أستطيع أن أقوله إن الناس الذين كانوا يحيطون به ، قد عدموا

الإحساس الفنى . . . أى الإنسانى .

« وددت لو دمرت كل من أسهم فى تدمير " فان جوخ" . . وددت لو ذبحت " جوجان" بالموسى كما لم يستطع " فان جوخ" أن يفعل . . . ولو فعل ، لكان الحق فى جانبه .

« لقد شعرت بالخوف : وبالرهبة ، تهددنى . فالمخاوف . . والهتافات التى كانت تناديه ، تنادينى أنا أيضاً . إننى أسمعها سمعاً حقيقياً لا خيالا . وأشعر بالخوف من المجهول الذى تربص له يؤرق مضجعى . .

« لا أستطيع أن أقول إلا أن هناك روابط قوية تربطنى بهذا الإنسان وهناك سؤال تساءله " فان جوخ" كثيراً .. هو نفس السؤال الذى تساءلته أنا نفسى مراراً كثيرة . . وهو : لماذا حكم على الفنانين بالتمرغ فى أحضان الجوع والألم ؟ لكن الجواب وضح من خلال حياة " فان جوخ" نفسه . وهو أن الألم النابع من أعماق الفنان ذاته . . أو الذى ينعكس عليه من أعماق الآخرين ، هو الذى يزيد من رقة إحساسه . . . ومتى استطاعت الحساسية

أن تعبر عن نفسها بطاقات خلاقة
كان الخلود .. فالنفس التى تتألم هى النفس
التى تحس ، ومن ثم . . فهى النفس
التى تخلق فنّا يبهر » .

* * *

كلمات – للحق وحده – محلقة ، وجميلة ، وغريبة . . .
وأغرب منها ، صدورها عن إنسانة فى مثل عمرها . لم تكن ، وقت
أن أحستها ، وكتبتها ، قد أنهت دراستها الثانوية . . وبالتالى لم تكن
قد أكملت ، بعد ، السابعة عشرة من عمرها . . .

ولكن . . عندما نتوقف قليلا لنتأمل قولها : « النفس التى تتألم
هى النفس التى تحس . . ومن ثم ، فهى النفس التى تخلق فناً يبهر»
عندما نتوقف قليلا لنتأمل هذه الكلمات ، لا نجد ثمة وجهاً للغرابة .
فلقد كانت " نادية" – على وجه اليقين – تحمل نفساً تحس ، وتتألم ،
وتعيش الألم حتى ذروته . . . كانت تحمل نفساً كالمرآة المصقولة ينعكس
عليها كل شيء ، حتى الألم ، بشكله الحقيقى ، وبحجمه الحقيقى .
لا تزيفه ، ولا تحذف منه ، ولا تضيف إليه . ومن ثم ، فليس غريباً
مطلقاً أن نجدها ، وهى ما تزال فى هذه المرحلة الباكرة من العمر ،
قادرة على التعبير عن مشاعرها بمثل هذه الكلمات الجميلة المحلقة . .

وربما يقال إن ذلك الجمال الفنى البادى فى تلك الكلمات التى
عبرت بها " نادية عن مشاعرها نحو " فان جوخ" ومأساة حياته ،
كان وليد لحظة انفعال شديد بمأساة الرجل الفنان . . . وربما يقال أيضاً
إن هذا الجمال الفنى البادى فى قدرتها على التعبير عن نفسها ، إنما
يرجع – بالدرجة الأولى – إلى أنها كانت تملك نفساً تتألم ، وتحس ،

وقادرة – لأنها تتألم وتحس – على أن تخلق فناً يبهر .

وليس من شك أن فى كلا القولين بعض الحقيقة . . . أما الحقيقة كاملة ، فهى أنها – إلى جانب حسها المرهف إلى حد لا يوصف . . . وإلى جانب نفسها التى كانت تتألم ، وتحس ، وتقدر ، بالتالى ، على أن تخلق فناً يبهر – إلى جانب هذين العنصرين اللذين أعدهما أساسين فى تكوين الإنسان الفنان – كانت تملك موهبة أدبية مبشرة . .وكانت موهبتها هذه أكبر من عقلها . . . وكان عقلها ، بدوره ، أكبر بكثير من عمرها .

فبعيداً عن الانفعال بأية مأساة فادحة أو هينة . . . وبعيداً عن العيش فى أى ألم سطحى أو عميق . . . نجدها – وهى ما تزال فى المرحلة الإعدادية – تنتهز فرصة "عيد الأم" لتقدم لأمها ، بهذه المناسبة، هدية صغيرة . . هدية تتناسب وقدرتها الخاصة على تقديم الهدايا : بطاقة جميلة .. زينتها من عندها بهذه العبارات التى إن أكدت – فوق رهافة حسها – شيئاً ، فإنما تؤكد أصالة موهبتها . . واستعدادها الكبير فيما لو أمهلها القدر ، لأن تصبح فى « دنيا الأدب» شجرة يانعة . . . شجرة وارفة الظلال . . موفورة الزهر . . موفورة الثمر .

ولنقرأ معاً هذا الذى انتهزت "نادية" فرصة "عيد الأم" لتكتبه لأمها :

● « أمى الحبيبة . . .

«أنتهز هذه الفرصة السعيدة التى تتناجى خلالها قلوب الأمهات مع قلوب الأبناء بأنغام حالمة تنبعث عن قيثارة حنون . . من القلب . . قلبك

الكبير المفعم بالحب ، وما أعظم حبك
المفعم بالآمال — وما أكثرها — لفلذاتك
من أجل مستقبل مشرق يشع نوراً ،
وسعادة ، وأملا ، وإيماناً . . . إيماناً
بالله سبحانه . . وبالوطن .

« أمى الحبيبة

« ماذا ترانى مستطيعة أن أقول ؟
ماذا ترانى مستطيعة أن أقول لك . . .
ولقلبك الكبير الذى يعطى ، ويعطى . .
من دون أن يطلب ، ولن يطلب .
أأقول إنى أحبك . . .؟ إن حبى لك ،
مهما كبر ، لن يوفيك حقك . ؟ ؟
أأقول إن كل خلجة فى تسبّح باسمك . .
وتنبض بحبك ، وبحمدك . . .؟ إن هذا
أيضاً لا يكفى .

« إننى فى حيرة . . . هل
هربت الكلمات منى ؟ ؟ لا . .
لم تهرب الكلمات منى ، وإنما الذى
هرب هو قدرتها على التعبير عما
تستحقينه أنت بالذات . . وتستحقه
معك كل أم . وإذن . . . وما دمت
عاجزة — عن طريق الكلمات —
عن أن أقول لك ما أريد أن أقوله . . .
...فلنكتفى بأن أجدد العهد .. وبأن

يتناجى قلبانا على أنغام مقدسة من
قيثارة الله » .
" نادية"

تلك كانت موهبتها ، وأمنيتها : أن تعبر — بجمال — عن كل ما هو جميل . . . عن الخير ، والحب ، والشوق ، واللهفة ، والألم . . وذلك كله ، فى النهاية . هو « الأدب » . . الأدب الذى كانت " نادية" تعشقه ، وتهواه : وتتمنى أن تصبح فيه شيئاً ملحوظ القدر . .ملحوظ المكانة — فتكتب . فى مذكراتها الخاصة ، معبرة عن هذه الأمنية التى تراودها :

● « إن قلبى يفيض بالسعادة ،
لأن القدر قد حبانى بأبوين أتاحا لى
فرصة التعليم فى مدرسة من مدارس
اللغات . كما كان لاهتمام والدى بالأدب ،
دور خاص فى امتلاء مكتبة بيتنا
بالكتب الثمينة ، والغنية بالمعرفة فى شتى
مجالات الأدب ، والعلوم ، والفنون .
وبذلك فقد توافرت لى إمكانيات التفوق
فى اللغات الأجنبية ، والثقافة العالية .
وهما ، فى رأيى ، الدعامتان الحقيقيتان
اللتان أستطيع بهما أن أثبت مكانتى فى
عالم الأدب . فأصبح شاعرة ذائعة

الصيت . . أو قصصية راسخة القدم . .
وذلك شيء ليس بالمستبعد تحقيقه .
فإنى أشعر بأن الله قد منحنى ، فعلا ،
موهبة الكتابة . . . وإنى لأحس بها
تملأ علىّ نفسى كلها . . وكيانى كله » .

لم تكن " نادية" تقف من موهبتها التى شعرت بأنها تملأ عليها نفسها كلها ، وكيانها كله – موقف المتفرج . . موقف من يبذر فى الأرض بذوراً ثم يقعد بجوارها ساكناً ساكتاً ، فى انتظار أن يأتيه الحصاد بلا جهد . ولا تعب ، ولا عرق .

لم تكن " نادية" تقف من موهبتها هذا الموقف السلبى . وإنما كانت تنميها ، وتتعهدها ، وترعاها . كانت تنميها بالقراءة الجادة لأعلام الأدب الفرنسى الذى كانت تتعلمه ، وتعشقه ، وتحبه . . وكان طبيعياً نتيجة لهذا الحب ، أن تحقق فيه ، كتابة ، وقراءة ، ودراية عميقة به وبأعلامه ، تفوقاً ملحوظاً .

ولم تكن " نادية" تكتفى بالقراءة " لراسين" . . و " فيكتور هوجو" " وفولتير" و " موليير" . . و " سارتر" . . و" مارلو" . . و " موروا" . . وإنما كانت تحتفظ لنفسها برأى خاص ومشاعر خاصة نحو كل من هؤلاء الأعلام . . . فى الوقت الذى كانت تعشق فيه " لامرتين" . . كانت ترثى "لبودلير" . . وتتأفف من أخلاقيات " فولتير" ، وتنطوى على إعجاب عميق " بألبير كامى" الذى حزنت عليه يوم لقى مصرعه فى حادث سيارة حزناً شديداً ، وكأنه صديق حميم كانت تراه كل يوم ، وتجالسه ، وتسر إليه بآلامها ، وآمالها . وكان أعظم ما تفذ " بألبير كامى" إلى قلبها ، ليس فكره المنطلق فحسب ، بمقدار ما كان تعاطفه مع ثورة الجزائر ، وشعب الجزائر اللذين كانت تحلهما من وجدانها المتفتح مكاناً رفيعاً ، هو السبب الأعظم الذى شدها إليه ، وأبكاها من أجله .

كذلك لم تكن " نادية" تكتفى بالقراءة لهؤلاء الأعلام الذين كانت تعشق أدبهم ، وتعشق أقلامهم ، وتعشق أكثر الذى كانوا يكتبونه .

بل كانت تناقشهم فى كل ما كانوا يكتبونه . . . وكانت كتبهم الغالية الثمن التى كانت حريصة على أن تشتريها –برغم ارتفاع ثمنها– من مصروفها الخاص . . كانت هذه الكتب حافلة بتعليقاتها الخاصة ، تملأ بها هوامشها ، اختلافاً أو اتفاقاً . . رفضاً أو قبولا ، لأفكار هؤلاء الشوامخ . وما منعها حبها لهم ، وإعجابها الشديد بما كانوا يكتبون – من أن تقول فيه رأيها الخاص بصراحة وشجاعة ، على الرغم من كونهم شوامخ تعنولهم الجباه .

* * *

على أن الأدب الفرنسى ، والأدباء الفرنسيين ، لم يكونا المنهل العذب الوحيد الذى تنهل منه روحها المتعطشة دوماً إلى المعرفة . . . بل كان الأدب العربى ، والشعراء العرب على وجه الخصوص ، منهلها العذب الآخر الذى كانت روحها تنهل منه . ، وتتغذى عليه .

ولقد كان "لنادية" فى شعراء مصر الكبار رأى، بل آراء . . . كثيراً مادار بيننا نقاش طويل حولها. ولا أذكر أننى أفلحت كثيراً فى تغيير آرائها . . .فلقد عرفناها عنيدة بصفة عامة، وكانت أشد ماتكون عناداً فيما يتعلق بالآراء التى كونتها لنفسها . . . فلم يكن سهلا أن تنزل عنها إلا أن يكون ذلك عن اقتناع كامل . وكانت ذات نفس طويل فى المناقشة . . . ويرجع هذا ، بالدرجة الأولى ، إلى ميل طبيعى فيها . . . ثم إلى حصة « المناقشة المفتوحة » التى كانت تأخذ بها مدرستها . وإذ كان حب المناقشة ميلا طبيعياً فيها ، فقد جاء هذا المنهاج من التعليم فأنضج من هذا الميل ، وزاده تأصلا فى نفسها .

لقد كان لها فى " أحمد شوقى " رأى . . . .
وكان لها فى " حافظ إبراهيم " رأى ثان . . .

وكان لها فى " سامى البارودى " رأى ثالث . . .

● كان رأيها فى " شوقى " أنه عميق . . . ولكنه ليس « ساخناً » . وكانت تراه يتناول القضايا العامة بأسلوب من لا يريد التعمق فى الخوض فيها . وتشبهه برجل ينزل إلى البحر وهو خائف منه ؛ فتراه ملتصقاً دائماً بالشاطئ حتى لا يجره البحر إليه فيضيع بين أمواجه !!

ـ وكان رأيها فى " حافظ إبراهيم " أنه حزين أكثر مما ينبغى بل كانت تراه « قاتماً » . وكنت أقول لها : مدافعاً عن « شاعر النيل » :

ـ إن الحزن صفة أصيلة فينا نحن المصريين : وإن أغانينا نفسها حزينة . وبهذا المعيار فإنه يمكن عد " حافظ إبراهيم " شاعر قومه .

وأذكر أنها خالفتنى هذا الرأى قائلة :

ـ إن الشاعر . . أى شاعر . . لا يغنى لقومه وحدهم ، وإنما هو يغنى للناس كلهم . . وللحياة نفسها . والحياة ليست حزناً فقط . . بل هى حزن وفرح . . دمعة وابتسامة . . هزيمة وانتصار . إن الشاعر عندى كالرسام سواء بسواء . . وكما يستطيع الرسام أن يعبر بريشته عن « الخريف » الذى يجرد الأغصان من كل ورقة خضراء فيها : فإنه يستطيع فى الوقت نفسه . . وبالريشة نفسها . . أن يعبر عن « الربيع » الذى يملأ الدنيا كلها بالزهر ، وبالعطر .

لكن " نادية " : على رأيها هذا فى « شاعر النيل » ، كانت تذوب شغفاً بقصيدته : « مصر تتحدث عن نفسها » . وإنى لأذكر أنها حدثتنى يوماً حول هذه القصيدة ، فقالت : « إن فيها بيتين أشعر فى كل مرة يمران فيها بخاطرى أننى أريد أن أبكى ، ولست أدرى لماذا . . إنهما البيتان اللذان يقول فيهما " حافظ إبراهيم " بلسان مصر :

«أنا إن قدَّر الإله مماتى   لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى»
«ما رمانى رامٍ وراح سليماً   من قديم رعاية الله جندى»

وقلت لها :

— ربما يكون السبب الكامن وراء شعورك هذا ، أنك تحبين بلدك حبًّا عظيماً . . .

قالت ، وقد اكتسى وجهها بإشراقة من الرضا لهذا التفسير :

— ربما . . .

* * *

أما " محمود سامى البارودى " فكان فى رأيها أكبر من أن يكون مجرد «شاعر» . . . كانت تراه بطلا وطنياً عظيماً . . . وكان اعتداده بنفسه ، وبتاريخه ، وبكرامته كإنسان وجندى — برغم النفى ، والاضطهاد ، والتشريد — مثار إعجابها الشديد به كإنسان ، وبطل ، وشاعر . . .

كانت تقول : «إن البارودى ليس أشهر شعرائنا الكبار ، ولكنه — فى رأيى — أعظمهم» . . . وكانت دائمة الترنم ببيتين من قصيدته : «سرنديب» التى يصف فيها "البارودى" حاله فى المنفى . . . والتى كانت تستذكرها كواحد من النصوص الأدبية المقررة عليها فى مرحلة الثانوية العامة — وهذا البيتان هما :

«فكم بطل فلَّ الزمان ثباته   وكم سيِّد دارت عليه الدوائر»
«وأىُّ حسام لم تصبه كلالةٌ   وأىُّ جواد لم تخنه الحوافرُ»

* * *

ومن الشعراء العرب الآخرين ، كانت " نادية " تعشق الشاعر التونسى

" أبو القاسم الشابى " الذى رحل مثلها ، فى زهرة العمر . . . والشاعر اللبنانى بشاره الخورى « الأخطل الصغير » . وقد وجدت بين أوراقها الخاصة ، بعد وفاتها ، قصاصة من صحيفة تحمل من شعر " أبو القاسم الشابى " هذه الأبيات التى أحسبها قد احتفظت بها بين أوراقها الخاصة : لأنها رأت فيها تعبيراً عما كان يدور فى أعماقها :

« نحن نمشى ، وحولنا هامة الأكوان تمشى ، لكن . . لأية غاية ؟ »

« نحن نشدو مع العصافير للشمس ، وهذا الربيع ينفخ نايه »

« نحن نتلو رواية الكون للموت ، ولكن . . . ماذا ختام الرواية»

« هكذا قلت للحياة فقالت : سل ضمير الوجود . . . كيف البداية ؟ »

* * *

أما بشاره الخورى « الأخطل الصغير » — فكانت تعشق فيه رقته ، وقدرته التى كانت تقول إنها لا حدود لها على تجسيد الصور . . . وتضرب مثلا لذلك قول «الأخطل الصغير »فى قصيدته : « الصبا . . والجمال » :

« قتل الورد نفسه حسداً منـ ـك وألقى بدماه فى وجنتيك »

« والفراشة ملّت الزهر لما حدثتها الأنسام عن شفتيك »

إلا أن " نادية " كانت تخالف « الأخطل الصغير » الرأى فى مطلع هذه القصيدة نفسها ؛ إذ يقول الشاعر فيه :

« الصبا والجمال ملك يديك أى تاج أعز من تاجيك »

وكانت تبنى مخالفتها للشاعر على أساس أن تاج المرأة الأعز ، إنما هو "العفة"...أما «الصبا ... والجمال» فلم يكونا ، فى رأيها ، تاجين يتضاءل

بجانبهما كل تاج آخر . فقد تكون المرأة — على حد قولها — « جميلة » أروع ما يكون الجمال . . . وقد تكون « صبية » أنضر ما يكون الصبا . . . ولكن،ليس لها إلى جانب ذلك شيء من « العفة » . . . وفى هذه الحالة لا تخرج ، فى رأيها،عن كونها « زهرة فى الوحل » ! !

* * *

لقد كانت المناقشة معها تلذ لى، على الرغم من أننا كثيراً ما اختلفنا وتباينت آراؤنا . . . لكن عقلها الذى كنت أراه يكبر ، ويكبر ، حتى ليسبق عمرها بمسافة طويلة . . . طويلة . . . كان يملؤنى سعادة به وبها . . .ولطالما خرجت من خلال مناقشاتى معها بأفكار لمقالاتى كانت —من ناحيتها — لا تخفى اعتزازها بأنها من نتاج مناقشاتها معى .

* * *

وكما كانت "نادية" ترعى موهبتها الأدبية ، وتنميها بالقراءة الجادة فى شتى ألوان الأدب ، والعلوم ، والفنون .ر فإنها كانت ترعاها ،وتنميها بالوجه الآخر من وجهى الرعاية والتنمية : «بالكتابة».. فعالجت « الكتابة » شعراً ، ونثراً ، وحتى القصة ، كانت لها فيها هى الأخرى محاولاتها التى يمكن اعتبارها — بغير مجاملة أو تحيز — محاولات ناجحة ، وناضجة .

وعلى الرغم من أن " نادية" كانت قد عالجت كل ألوان الكتابة : النثر . . . ، والشعر . . . والقصة . . . فإن اختيار « القالب» الأخير الذى كانت تود أن تستقر عليه ، كان لا يزال بالنسبة لها مشكلة تسبب لها حيرة شديدة . فتجدها فى مذكرة يوم الثلاثاء ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٤ تكتب كاشفة عن تلك الحيرة التى كانت تعانيها :

● « إنني أحس كأنني تائهة في صحراء لا أدرى ماذا أفعل . . .

« فأنا أريد أن أكتب . . . لا شيء إلا أن أكتب . . ولكن، أي شيء أكتب . .؟

«هل أكتب أشعاراً . . أم أكتب قصصاً . . أم أكتب نثراً ؟ لم أعد أعرف بالضبط ماذا أريد أن أكتب .

« في بعض الأحيان ، أشعر أنني أريد أن أكتب شعراً ، لكنني أحس أن الخيال لا يسعفني . وفي بعض الأحيان أشعر أنني أريد أن أكتب القصص ، ولكني أشعر أن المادة العميقة التي أستطيع أن أصنع منها قصة جيدة ، تنقصني . عندي الإرادة . . ولكن ، ليس عندي الخبرة . عندي الأسلوب . . ولكن ، ليس عندي المادة .

« إنني أشعر بأني أكاد أختنق، فسهل جداً أن يمشي الإنسان في طريقه ولكن الصعب ، حقاً ، هو أن يعرف الإنسان كيف يختار ذلك الطريق ! ».

* * *

ومعها . . . مع الإنسانة الحساسة ، كأنها طير على فنن . . الرقيقة كأنها جدول ماء يترقرق . . نتوقف قليلا لنقرأ لها هذه السطور التى أفضت بها إلى مذكراتها الخاصة بعد أن كانت قد فرغت لتوها من امتحان الثانوية العامة :

● « بزغ فجر يوم جديد وضاء ينضح بالبشر وبالأمل . أنسام اليوم الجديد تخطر إلى نافذتى فتعطرنى بشذاها . وكانت الطيور تملأ الجو من حولى بغنائها كأنما تزف إلىّ خبر نجاحى الذى طالما سهرت الليالى ، وسكبت الدموع لأناله . ونسيت . . نسيت حاضرى ، ورحت أتخيل الأيام الآتية .. ودخلت مع نفسى فى محاولة ارسم نقاطها :

« كانت آمالى هى التى تمسك بخيوط أفكارى ، وتحركها فى الاتجاه الذى تريده . وكان أعظم آمالى ، هو أملى فى العمل على إسعاد تلك التى أمضت الليالى الطوال ساهرة إلى جوارى تمنحنى من تشجيعها قوة لنفسى الواهنة . ومن دعواتها أملا لروحى الظامئة . إنها أمى ، وما أعظمها من أم . . كانت تحمل إلى فى الليل الطويل ما أطلب ، وما لم أطلب . كانت تقاوم تعبها الخاص

لتجدد نشاطى . . وتزيدنى رغبة فى
النهل من دروسى . كانت تحاول جاهدة
إخفاء إرهاقها وراء ابتسامة شاحبة ،
كانت تبذل جهداً خاصاً لكى ترسمها
على شفتيها اللتين كانتا تتحركان فى
ابتهال صامت إلى الله أن يبلغنى أمنياتى .
لكن عينى لم تكن غافلة عن تعبها . .
ولا عن إرهاقها . . ولا عن عظمتها .

« أما وقد حلت الإجازة الصيفية .
فإن الوقت قد آن لتعويضها . . ولو بعض
الشىء — عما بذلت من أجلى ، ومن
أجلنا جميعاً . . لقد صممت على ألا
أجعلها تلمس أى عمل ؛ من أى نوع ؛
ما دمت أنا قادرة على إنجازه . . .
سأقوم بأعمال البيت جميعاً غير متأففة ،
ولا كارهة . . . سأقوم بعمل أى شىء .
وكل شىء ، من أجلها .. من أجل
هذه التى تكاد أعمالها تبكينى لشعورى
بالعجز عن التعبير عن امتنانى العميق
لها . ربما أستطيع أن أرد إليها القليل
من دينها العظيم على عندما أنجح
فى أن أجعلها تسمع شيئاً من الثناء على .
وعلى أخلاقى . . وعلى الفضائل التى
قضت عمرها تعلمنا إياها .

« أما النقطة الثانية فى تخطيطي لإجازتى الصيفية فهى القراءة . . ثم القراءة . . ثم القراءة . إن القراءة رفيقى الذى لم أمله ، ولن أمله . . . كانت رفيقى منذ كنت طفلة صغيرة لا تكاد تستوعب ما تقرأه . إن القراءة تستهوينى لأننى ، من خلالها ، أستطيع أن أعبر إلى الماضى . ومن خلالها أستطيع أن أزداد معرفة بعالمنا المعاصر ، ومشكلاته ، وقدراته على حل هذه المشكلات . ومن خلالها أستطيع أن أتعرف على تاريخ الرجال العظام الذين عبروا بالإنسانية فى تاريخها الطويل ، وكان لكل منهم قصة كفاح ، ونضال ، لا بد أن أفيد منها شيئاً ، بل أشياء لها قيمتها . ومن خلالها أستطيع أن أتعرف على خصائص الشعوب ، وتاريخها ، وكفاح كل منها على طريق الحضارة .

« هذا هو أهم سبب فى أسباب عشقى الذى لا حدود له للقراءة . أما السبب الآخر الذى يزيدنى تعلقاً بها ، فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى أن أحققه فيه . فإن هوايتى ، بل

أمنيتى أن أصبح كاتبة . والإطلاع . . المزيد من الإطلاع . . هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ، ما دامت الموهبة لا تنقصنى . وهى بالفعل لا تنقصنى .

« ذلك ما أوحت به إلىّ خلجات نفسى . . وأنا أتأمل ، من خلال نافذتى ، روعة الطبيعة . . وإعجاز القادر عز وجل » .

هل من حقى أن أتوقف هنا قليلا لأسأل : كم كان عمر هذه الفتاة التى جلست مع نفسها « فى صباح يوم وضاء» لتفضى إلى مذكراتها الخاصة بهذه الكلمات الكبيرة معنى . . والكبيرة أسلوباً . . والكبيرة إحساساً ، وأملا ، ومسئولية ؟

ربما كان من حقى أن أتوقف لأسأل هذا السؤال الذى أتصور أن كثيرين غيرى سوف يسألونه . . وعلى ذلك ، فإنه يصبح من واجبى أن أجيب : لقد كانت تقف بعمرها على أبواب الثامنة عشرة ! !

ولكن . . أية أحلام هذه التى كانت تراودها وهى تقف على أبواب هذه السن الغضة ؟

● إنها ، كما ترى ، لا تحلم « بفارس الأحلام » الذى سوف يتقدم إلينا طالباً يدها ! !

● ولا تحلم « بشاطئ البحر» الذى سوف تبنى على رماله قصوراً ، ما أشد قدرة الشتاء على تهديمها ! !

● ولا تحلم « بالموضة» التى لم يتح لها انهماكها الجاد فى دراستها ، بضع ساعات ضائعة من العمر تقضيها مع خطوطها . . وجنونها !

لم تكن بنت الربيع الثامن عشر تحلم بشىء من هذا كله . . . . وإنما كانت تحلم « بأمها» . . كيف تريحها . . وكيف تسعدها . . وكيف تعوضها عن الليالى الطوال التى قضتها ساهرة بجوارها لتقدم لها — على حد تعبيرها — « ما تطلب . . وما لم تطلب» .

وراحت تحلم « بالقراءة» . . وكيف أنها سوف تلتهمها التهاماً ، وتعب من بحرها عباً . .

وراحت تحلم « بالكتابة» . . وكيف أنها سوف تتخذ من القراءة . .

المزيد من القراءة . . جسراً يوصلها إلى تحقيق أمنيتها . . إلى أن تصبح «قصصية ذائعة الصيت» . . أو «شاعرة راسخة القدم» ! !

وربما يكون من التجاوز الشديد أن نعتبر هذا كله أحلاماً . أجل . . . إنها ليست «أحلاماً» راحت تشبع بها خيالها . . وليست «منى» راحت تمنى بها نفسها . . وإنما الصحيح أنها «خطة عمل» . . «خطة عمل» كاملة ، قررت أن تلتزم بها لتُرضى ، وتَرضَى .. لتُرضى أمها ، وتُرضى ضميرها ، وتُرضى مشاعرها .. ثم لتَرضَى هى عن نفسها . وعن مستقبلها الذى راحت تخطط له الخطط ، وترسم له معالمه وحدوده.

وواضح من كلُ ما كانت تفكر فيه "نادية" . . وتحلم به . . وتخطط له — واضح أنها كانت تعرف تماماً : من هى . . وماذا تريد .

كانت تعرف — وبدون أية محاولة من جانبها لمخادعة نفسها — أنها موهوبة . . وملهمة . . وأن طريقها لتنمية موهبتها ، وللاستزادة من الثقافة التى كانت تريدها سلاحاً تضعه فى خدمة موهبتها ، مفتوح على أوسع أبوابه ، وليس ثمة عائق يعوقها عن الدخول منه .

أما ماذا تريد — فبدون أية محاولة لخداع النفس أيضاً — كانت تعرف تماماً أنها تريد أن تصبح أديبة : «قصصية ذائعة الصيت» . . أو «شاعرة راسخة القدم» . ومن هنا اختفت صورة «فارس الأحلام» من دفتر مذكراتها الخاصة ، فلم يلح له فيها أى أثر فى حين لاح أكثر من أثر «للقصصية الذائعة الصيت» ، أو «الشاعرة الراسخة القدم» التى كانت تريد أن تكونها .

فبتاريخ يوم الخميس التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ — نلتقى فى مذكراتها الخاصة بهذه السطور :

● «كنت اليوم أفكر فى الزواج . .

ما هو؟

« إنه فى نظرى ليس نهاية الآمال بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً قاتلها ! !

« ولنأخذ حالتى مثلا : فتاة شابة تعشق الخيال . . وتعشق الكتابة . . وتعشق القراءة . . وتعشق الموسيقى . ماذا يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة لو أوقعها القدر فى " مصيدة الزواج " ؟ !

« الجواب معروف . . . ستكون مشغولة دائماً ، ولن يكون لديها ساعة فراغ واحدة تستطيع أن تمارس فيها شيئاً من كل ذلك الذى تعشقه . إنها سوف تتحمل مسئولية زوجها الذى من المحتمل أن يكون واحداً من هؤلاء الكثيرين الذين لا يحبون الخيال . . ولا يحبون القراءة . . ولا يحبون الكتابة . . ولا يحبون الموسيقى . وسوف تتحمل إلى جانب مسئولية زوجها — الذى قلت إنه من المحتمل جداً أن يكون من ذلك الطراز — سوف تتحمل مسئولية أطفالها .. ومسئولية بيتها نفسه . وإذا لم أشأ أن أكون متشائمة ، وتصورت أن مثل هذه الفتاة سوف تستطيع أن تختلس لنفسها

دقائق من الراحة . . فإنها لن تستطيع
فى هذه الدقائق القليلة التى سوف
تختلسها ، أن تعود فتركب " قطار
الخيال" الذى يسمح لها بأن تكتب
القصة . . وتنظم الشعر . . وتسمع
الموسيقى . . وتسرح . . وتسرح ! !

« إن الرجل يستطيع دائماً أن
يعيش حياته . . يستطيع ، لو أراد ،
أن يخصص حياته لرغباته ، وآماله ،
واختياراته . أما المرأة . . . هذا المخلوق
الضعيف برغم كل شيء . . برغم أنها
أثبتت قوتها ، ونجاحها فى كثير من
الميادين. فإننى أعترف بأنها— ويا للأسف
الشديد — لا تزال ضعيفة جداً بالنسبة
لإحدى النقاط الهامة المرتبطة بحياتها .
فالمرأة . . أية امرأة . . ما تزال تفزع
من أن يقال عنها إنها " عانس". . .
وهى الكلمة البشعة التى تقال دائماً
على كل من لم تستطع أن تلحق
بقطار الزواج » .

* * *

وهنا . . فى هذه الكلمات بالذات ، يبرز خط من أبرز خطوط
تركيب " نادية" الخلق والنفسى . . ذلك هو « الصدق » . فلقد كانت

" نادية" صادقة مع الناس إلى أبعد حد . . . وكانت أشد ما تكون صدقاً مع نفسها ، حتى بالنسبة للحلم الذهبي الذى ليس كمثله حلم يداعب خيال كل فتاة فى مثل عمرها . . إنها تخاف ذلك الحلم الذهبي . ولكنها ــ بصدقها الخالص مع نفسها ــ تقولها صريحة : إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه . ذلك لأنها أنثى . . وكل أنثى ضعيفة . . وكل أنثى لا بد أن تكره تلك الكلمة البشعة التى تقال عنها إذا ما فاتها « قطار الزواج» . . كلمة « عانس » . ! !

ومن صور ذلك الصدق الخالص مع نفسها ــ وهو الصدق الذى كان يحكم ، ويتحكم ، فى جميع تصرفاتها . . أهونها ، وأكبرها ، على السواء . أذكر لها الصور التالية :

● جاءتنى مرة شاكية من العناء الذى تتعرض له فى وسائل المواصلات من بيتنا فى مصر الجديدة إلى الجامعة بالجيزة . فاقترحت عليها أن تركب مع مجموعة من زميلاتها كن يذهبن إلى الجامعة ويجئن منها فى السيارة الخاصة بإحداهن ــ وإذا بها تفاجئنى برفض اقتراحى قائلة :

ــ لا يمكن . . .

وكان طبيعياً أن أسألها :

ــ لماذا ؟

ــ لأننى لا أحب أن أفرض نفسى على أحد .

ــ ولكنك تتعرضين فى المواصلات لمضايقات لا تستطيعين ــ بحكم تكوينك ــ احتمالها

ــ عندما أقارن بين مضايقات المواصلات ، وبين المضايقة التى قد أسببها لهؤلاء الزميلات ، أجد أن احتمال الأولى أهون بكثير على نفسى .

ــ ولكنك فى المواصلات تتعرضين لكثير مما تكرهينه .

— وهذا أيضاً أهون عندى . . فإن راحة الجسم لا تهمنى . . وإنما الذى يهمنى هو راحة مشاعرى ، راحة نفسى . . وليس من السهل على أن أجد هذه الراحة مع شعورى بأننى فرضت نفسى على زميلاتى .

ورفضت " نادية " بإصرار ، أن تعمل باقتراحى — ومضت فى طريقها الذى رضيته لنفسها ، واضعة راحة النفس فوق راحة البدن . . فكانت تعود إلينا فى نهاية النهار متعبة غاية التعب . . ساخطة أشد السخط على وسائل المواصلات وما يحدث فيها ، وما يحدث منها ، واضعة « عزة نفسها » فوق اعتبار « الراحة » التى يضعها كثيرون من الناس قبل كل اعتبار ، وفوق كل اعتبار . . ثم تعود ، مع الصباح ، فتتعامل من جديد مع وسائل المواصلات !

* * *

وفى مرة أخرى ، عادت إلىّ من كليتها وقد اتخذت قراراً بأنها لن تحضر أية محاضرة لواحد من أساتذتها .

فسألتها :

— لماذا . .؟ !

— لأنه يستخدم فى مخاطبة الطلبة ألفاظاً لا يليق بأستاذ فى الجامعة أن يستخدمها .

— هل وجه لك أنت شخصياً شيئاً من هذه الألفاظ ؟ ؟

— أبداً . . .

— إذن . . فلماذا تقاطعينه ؟ ؟

— لأننى لا أطيق أن أسمع الألفاظ التى يتفوه بها ، ولا أطيق أن أراه وهو يجرح بها زميلاتى وزملائى .

— ولكن هذا الأستاذ لن يكون هو الخاسر بعدم حضورك محاضراته ، وإنما ستكونين أنت الخاسرة . لأنك فى نهاية العام سوف تؤدين امتحاناً

فى مادته التى يحاضركم فيها . !

ــ لن أخسر شيئاً . . إننى واثقة من ذلك . . ا

ــ كيف . . . ؟ ؟

ــ لأن هذا الأستاذ ، بالذات ، لا يقول فى محاضراته حرفاً واحداً زائداً على كتابه الذى بين أيدينا . . والكتاب معى ، وسوف أذاكر منه . . وسترى أننى ، بإذن الله ، سوف أنجح .

ــ ولكن . . . ما الذى سوف تكسبينه بمقاطعتك لمحاضرات ذلك الأستاذ ؟

ــ سوف أكسب الكثير . . .

ــ ما هو هذا الكثير الذى سوف تكسبينه ؟

ــ سوف أكسب أننى لن أرى شخصاً فقدت احترامى له . . وهذا فى رأيى ليس مجرد كسب . . بل هو نوع من السعادة أدخله على نفسى . .

ونفذت " نادية" ما قررت . . . قاطعت محاضرات الأستاذ . . . وذاكرت من كتابه . . و . . ونجحت .

* * *

قالت لها زميلة من زميلات الدراسة وهى تصافحها مودعة بعد إحدى زياراتها لها بالمستشفى :

ــ إنت عمرك يا نادية ما تقولى لى . . خلليني أشوفك ؟ ؟

وتشاغلت " نادية" عن الرد على زميلتها بكلمات بعيدة ، كل البعد ، عما سألتها عنه ، وانتهت المصافحة . . . وانتهت الزيارة .

وتصورت أنا أنها لم تسمع ما قالته لها زميلتها ، وهى تصافحها مودعة فسألتها :

ــ هل سمعت ما قالته لك " فلانة" وهى تودعك ؟ ؟

— سمعته . . .

— إذن لماذا لم تردى عليها ؟

— لأنني بالفعل لا أحب أن أراها — فهل تريدنى أن أكذب على نفسى ؟

— بالطبع لا . . . ولكن ، لماذا ؟ ؟

— لأنها ، ببساطة ، إنسانة تافهة . . . وبيصعب على جداً الوقت اللى بأضيعه معاها عندما تجىء لزيارتى . . .

— ولكنك مريضة . . . وهى تقصد بزيارتك ، وأنت مريضة ، أن تسليك عن مرضك .

— حتى وأنا مريضة ، فعندى ما أفكر فيه . وانفرادى بنفسى . وكلامى مع نفسى . . أفضل عندى ألف مرة من دقيقة واحدة أقضيها مع إنسانة ليس عندها شىء له قيمة يمكن أن تقوله . . . إنها تثرثر فقط . . وأنا ، بصراحة ، لا أحب الثرثارات .

وأترك " نادية" الصادقة إلى أبعد حد مع الناس – والتى هى أشد ما تكون صدقاً مع نفسها ، أتركها بعد أن أكون قد خرجت من تأملى لها . لكل كلمة قالتها ، وكل فعل فعلته ، بنتيجة ، لا أحاول – مخلصاً – أن أدخل بها العزاء على نفسى . . ولعل هذه النتيجة التى خرجت بها من تأملى الأبوى لتصرفاتها ، وكتاباتها ، وأفعالها – هى نفسها التى لا بد أن يخرج بها أى شخص آخر يتاح له – مثلما أتيح لى – تأمل حياتها ، وتصرفاتها ، وأفعالها ، وكلماتها . وهذه النتيجة هى : أن دنيانا هذه لم تكن صالحة لسنوات أخرى من العمر تقضيها " نادية" على أرضها . فقد أصبحت دنيانا غنية بألوان من الخداع ، والنفاق ، والزيف . . كان مستحيلا عليها – بحكم تركيبها النفسى والخلقى الذى جئنا ، فيما تقدم ، على شىء من ملامحه – تقبلها . . أو حتى معايشتها . فلقد كان إحساسها المتحفز دائماً لالتقاط هذه الأشياء التى تشوه وجه الدنيا . . . والتى يسقط تحت وطأتها أولئك الذين لم يرحمهم قدرهم فخلقوا على طرازها – أقول كان إحساسها المتحفز لالتقاط هذه الأشياء . . يعذبها ، ويضنيها ، ويرهقها ، ويجعلها تنظر إلى الدنيا . . وإلى كل ما يجرى على أرضها . . نظرة ليس فيها شىء من لون الربيع الذى كان يمثله عمرها .

فى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٦٤ – ألقت "نادية" مزيداً من الضوء على هذه الأشياء التى كانت تعتمل فى أعماقها . . والتى كانت ، فى نفس الوقت ، تضنيها وتعذبها – فكتبت فى مذكراتها تقول :

● « اليوم – دارت بينى وبين
مجموعة من زميلاتى فى المدرسة مناقشة
حول " الحياة" . . وكان رأيى الذى

أبديته فى هذه المناقشة أن " الصداقة" . وأن " الإخلاص" . . أشياء لم يعد لها وجود فى هذه الأيام التى أصبحت علاقات الناس فيها تقوم على أساس من المصلحة ، وتبادل المنافع فقط . أما الصداقة للصداقة ذاتها .. والإخلاص للإخلاص ذاته . . فقد صارت مع زماننا هذا "عملة" قديمة غير معترف بها..

« وقد استخلص زميلاتى من رأيى هذا أننى متشائمة من الحياة . والحقيقة أننى لا أشعر مطلقاً بشىء من التشاؤم . لكن الذى أشعر به ، حقيقة ، هو أن طبيعة عمل والدى قد وضعته ووضعتنا معه — فى احتكاك مباشر — مع الحياة .. وهو شىء أعتقد أنه لا يتوافر ، بنفس القدر ، لزميلاتى اللاتى اتهمننى بأننى متشائمة . إنهن لا يسمعن ما أسمع ولا يعرفن ما أعرف . . . ومن هنا ، فإننى أستطيع أن أقول إنهن لا يعرفن الحياة كما أعرفها . إن الحياة عندهن ضحكة ، ولعبة . . وليست هذه هى الحياة . . إنما الحياة ، فى حقيقتها ، رحلة استكشاف مستمرة . والمؤسف ، أن معظم ما يستكشف فيها أليم » .

وربما يكون فهم " نادية" للحياة على هذا النحو ، هو السبب فى كونها — على الرغم من حداثة سنها — كانت منتمية إلى الله على نحو لا يكاد يصدق ، بالقياس إلى مرحلة العمر التى كانت تعيشها . لقد كانت تعيش معنا بجسدها . . . فى حين كانت — بيقين — تعيش بوجدانها كله ، بقلبها كله ، مع الله . كانت روحها متصلة به . . . تهفو إليه . . وتتلهف تلهفاً غريباً على لقائه . . والصعود إليه . . .

ولم يكن هذا التلهف الغريب على لقاء الله ، والصعود إليه ، ناشئاً عند" نادية" عن يأس ، أو ضياع ، أو فشل . . . فلقد كانت طموحة ، وذكية ، ومتفوقة . . ليس على قريناتها فحسب ، بل كانت متفوقة حتى على نفسها . . وعلى عمرها .

ففى الوقت الذى كانت تؤمل فيه أن تصبح أول سفيرة لمصر فى الخارج . . وتعمل ، إيجابيًّا ، لهذا الأمل فتكون واحدة من العشرة الأوائل فى الثانوية العامة ، وتدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية — كخطوة أولى على الطريق لتحقيق هذا الأمل الكبير — فى هذا الوقت نفسه ، نجدها تكتب لنفسها فى دفتر مذكراتها الخاصة :

● « لا شك أن لكل إنسان فى هذه الحياة أمنية يريد تحقيقها . . . وإذا سألنى أحد عن أمنيتى التى أتمنى أن أحققها ، فإننى لن أتردد فى القول بأن أمنيتى هى أن أصعد إلى السماء ... أن ألقى الله . . أن أكلمه . . أن أناجيه . أن أفضى إليه سبحانه وتعالى ، بكل ما يدور فى نفسى . .

« وربما يرى البعض أن أمنيتى
هذه إن هى إلا مجرد خيال لا معنى له .
ليكن . . . ولكنها ، على كل حال ،
أمنيتى التى أتمنى – بإخلاص وصدق –
أن أحققها» .

* * *

وفى موضع آخر من المذكرات نفسها – نلتقى بها وهى تكتب :

● « إننى كثيراً ما تمنيت أن
أموت . . . وليس ذلك لأننى يائسة
من حياتى . . . أو لأن هناك ما يعكر
على صفوى. وإنما أنا أتمنى الموت لأنه...
لأنه الطريق الوحيد الذى أستطيع ،
من خلاله ، أن ألقى الله . وأنا أريد
أن ألقى الله . . »

* * *

وفى مقطوعة شعرية كتبتها فى فبراير سنة ١٩٦٤ – وكانت ما تزال فى الصف الثانى الثانوى – وجعلت عنوانها : " ليلى" . . . ولعلها كانت ترمز " بليلى" إلى " نادية" . . إلى نفسها . . نجدها تقول :

● « أماه . . ما أحلى اللقاء
« إنى أسمع الصوت البهير
« وإشارة الملكوت نحوى والنفير
« أماه هذا الضوء من ربى القدير

« ونداؤه : ليلى . . هبى من نوم
صغير
« ليلى اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
« أماه إنى صاعدة . . . أماه
إنى فى حبور
« أماه لا تبكى . . فنى جناته
أحيا وأطير » .

لقد كانت " لنادية " ، بلا شك ، أحلامها ... كانت لها أحلامها الكثيرة ، والكبيرة ، والجميلة . . . فمن أحلامها أنها كانت تريد أن تصبح أول سفيرة لمصر فى الخارج . . . ومن أحلامها أنها كانت تريد أن تصبح « قصصية ذائعة الصيت » ، أو « شاعرة راسخة القدم » . . ومن أحلامها أنها كانت تريد : « أن تصبح أماً قادرة على إنجاب رجال قادرين على تحمل مسئولياتهم تجاه أنفسهم ، وتجاه وطنهم . . مخلصين فى أداء واجبهم . . شاعرين بالأمن والاستقرار فى أحضان أسرتهم ، حتى يستطيعوا — فيما بعد — أن يمنحوا أولادهم نفس الحنان ، ونفس الاستقرار الذى رضعوه فى كنف والديهم » .

كل هذه كانت أحلامها التى عبرت عنها فى أماكن متفرقة من مذكراتها الخاصة . لكن الذى لا شك فيه أن حلمها الأكبر ، والأعظم . حلمها الذى كان يملك عليها خيالها كله . وكيانها كله ، وحواسها كلها ، كان هو « الصعود إلى السماء » . . . إلى حيث كانت تريد أن تلقى الله . . وتناجيه . . وتكلمه . .

وأعجب ما فى هذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، الذى كان يحتويها . . ويملك عليها خيالها كله ، وكيانها كله ، وحواسها كلها — أنها لم تكن تحتفظ به سراً خاصاً تفضى به — شعراً ونثراً — إلى مذكراتها الخاصة التى كتبت فى أول صفحة منها : « أنها تتمنى ألا يقرأها أحد . . وأنها لم تكتبها إلا لكى تتابع — من خلالها — مدى التطور الذى سوف يطرأ على أفكارها » . . وإنما تجاوزت بهذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، دائرة مذكراتها الخاصة هذه ، وانتقلت به إلى دائرة أكثر علانية . . وأكثر اتساعاً . . تلك هى دائرة موضوعات « الإنشاء » التى كان مدرس اللغة العربية فى المدرسة يطلب إليها الكتابة فيها .

● فى فبراير سنة ١٩٦٤ ـــ وهو نفس الشهر من نفس السنة التى كتبت فيها فى مذكراتها الخاصة تلك المقطوعة الشعرية المتقدمة التى تخيلت فيها صوت السماء يناديها ، ويدعوها إلى الصعود نحو الله ، وبجانب الرب الغفور – فى نفس هذا الوقت ، طلب إليها مدرس اللغة العربية فى المدرسة أن تكتب فى الموضوع الآتى : « جلس طفل متشرد أمام أحد البنوك ليقضى ليلة طويلة بعد يوم عقيم . عيشى مع هذا الطفل وصورى مشاعره وخيالاته » .

فكيف تخيلت " نادية " هذا الطفل . . . وبماذا جعلته يحلم . . وكيف صورت مشاعره وخيالاته ؟ ؟

لقد رأته طفلا رقيقاً وديعاً . . أرهقته الأيام بظلمها له ، وبإسرافها فى القسوة عليه . إلا أنه مع ذلك . . وبرغم قسوة الأيام عليه ، وظلم القدر له – استطاع أن يحتفظ بوجدانه سليما ، بقلبه نقياً . . فلم يحقد ولم يحسد ، ولم يفكر فى الانتقام من أحد . حتى ولا من الأيام نفسها . لذلك ، فإنه عندما وجد نفسه أمام البنك – بعد عناء يوم عقيم – فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أسلم نفسه للنوم ، بعد تعب طويل ، لم يغنه كثيراً ولا قليلا . . وعندما أخذه النوم فى أحضانه . راح يحلم . ولكن – هكذا رأت " نادية " – ليس بسرقة البنك . . ولا باختلاس بعض ما فى خزائنه من مجوهرات وودائع . . ولا بارتكاب أى شىء يتأذى منه شرفه وضميره .

ولأترك " نادية " . . زهرتنا الحبيبة . . تحدثنا ، بأسلوبها الخاص . . وبطريقتها الخاصة ، عن « الحلم العظيم » الذى راود ذلك المتشرد الصغير فى نومته أمام البنك :

● « رمانى التعب إلى جوار شجرة »

جردتها الطبيعة القاسية من أوراقها . وتلفتّ حولى فرأيتنى أمام مكان عامر بالأموال . . أمام بنك . . فندت عنى ضحكة ساخرة لمفارقات الأقدار !!

« وغفوت . . . ثم وجدتنى أتابع سيرى فى دهاليز الدجى . وبينما أنا فى رحلتى مع الشقاء ، تعلقت عينى بشىء صغير يبرق على الأرض، فامتدت يدى لتلتقطه وقلبى يخفق بالأمل . . داعياً الله أن يكون ذلك الشىء الصغير التى وقعت عليه عينى ، قطعة من الفضة أستطيع أن أشترى بها طعاماً أسكت به عواء جوفى الخاوى . وما هى إلا لحظة حتى اختنق الأمل فى صدرى . ولكننى ، بالسلاح الذى تعوّدت به دائماً مواجهة قسوة الحياة ، سخرت من صراخ أمعائى . . وتشاغلت عنه بالعبث بالمسحوق الذى احتوته تلك الورقة التى التقطتها من على الأرض . وبدون أن أدرى . . . وبدافع من البرودة القاسية التى كانت تحتوينى ، نثرت ذلك المسحوق على جسدى لعله يبعث الدفء فى أطرافى المتقلصة . ولكن، ويا للمفاجأة المذهلة . . ما كدت



أنتهى من نثر المسحوق على جسدى ، حتى وجدتنى عاجزاً عن رؤية ساقى وذراعى . لقد اختفيت . . . .

« وتساءلت : هل يمكن أن يكون هذا المسحوق مسحوقاً سحرياً كذلك الذى يستعين به أبطال الروايات الخيالية للوصول إلى أغراضهم ؟ ؟

« وافرحتاه . . . من ذا الذى قال إن الأقدار قاسية . . . ؟ أتكون قاسية وها هى ذى تهيئ لى فرصة ما كنت لأسمح لنفسى بتخيلها ؟ . . ألست وحدى الآن فى مواجهة " بنك " لا يقف على أبوابه أحد ؟ ؟

« وضحكت ساخراً من أولئك الذين أغلقوا أبوابه بالمزاليج الحديدية وانصرفوا . . . فإننى سوف أدخله . . وسوف أغترف منه ما أشاء . . كيفما أشاء . .

« ودخلت البنك . ولا تسألنى : كيف ؟ . . فأنا نفسى لا أعرف . كل الذى أعرفه أننى سرت . . وسرت . . حتى وجدت نفسى آخر الأمر محاطاً بكنوز من الأموال . وتأملت الأوراق الخضراء التى كانت دائماً تأبى الاقتراب

منى ، وقد استكانت فى دعة ليدى العابثة . .

« ودهشت . . . دهشت غاية الدهشة حين وجدت نفسى لا أريد أن آخذ شيئاً من كل هذه الكنوز التى وجدتها تحيط بى . وعجبت . . فعندما كانت الأموال بعيدة عنى لم يكن لى فى الدنيا من حلم سواها. ولما أصبحت فجأة ، ملك يدى لم أعد أريد منها شيئاً . . حتى ولا أقل القليل . .

« وغادرت البنك . . وعلى غير هدى ، رحت أسير . . وأسير . وفجأة وجدت نفسى أواجه شيئاً غريباً حقاً . وجدت فرساً ذهبياً له أجنحة .. وعلى الرغم من الذعر الشديد الذى انتابنى لرؤيته ، اقتربت منه . . ورحت أتأمله . خيل إلى — وربما كان ذلك حقيقة — أنه يدعونى لركوبه . وعجبت . . . ! ! إلى أين يريد هذا الفرس الذهبى أن يحملنى ؟ ؟ هل يصعد بى إلى السماء . . ؟ ؟ وهل أرى الله حقاً . . ؟ ؟ وهل يتاح لى أن أكلمه . . ؟ ؟

« وتمزقت أفكارى بغتة . . . .

فقد اندفع بى الفرس الذهبى صاعداً ...
صاعداً . . يخترق السحاب تلو السحاب
وأنا (مبهورة) الأنفاس ، أكاد أكون
(متحجرة) من الأحداث المذهلة التى
احتوتنى دفعة واحدة . .

و . . . . ورأيت الله " ! !

« لم أر سوى نور . . . نور
عظيم . . . نور يغمر عرش السموات
والأرض . وعرفت — بغريزتى —
أن هذا النور العظيم هو الله .

« وانهمرت الدموع غزيرة من
عينى . . . فإننى لم أشعر فى حياتى يوماً
بحنان الوالدين . . . ولم أسعد مرة بعطف
إنسان على . ولكن ، هأنذا أستمتع
بأعظم حنان فى الوجود . . حنان الله
على عبده ! !

« واندفعت أشكو إلى الله ظلم
عباده على الأرض . . . وكيف أن
الشفقة والمحبة قد محيتا من قلوبهم . . .
وكيف أنهم نسوا الآخرة وما ينتظرهم
فيها من حساب وعقاب .

« شكوت . . وشكوت . . حتى
استنفدت كل ما عندى ، وقد استشعرت
راحة عميقة . . عميقة . . إذ وجدت ،

أخيراً ، من يستمع إلى شكواى . وكانت أعظم فرحة دبت فى قلبى ، تلك التى أحسستها حينما سمعت الله يواسينى . ويعدنى بخير الجزاء . . وبكل شيء افتقدته على الأرض .

« وقبل أن يعود بى الفرس الذهبى إلى الأرض . . . ذهبت لأرى الجنة والنار . . . ذهبت لأرى بنفسى . . . لكى أخبر عباد الله المتجبرين فى الأرض بالمصير الذى ينتظرهم إن هم تمادوا فى تجبرهم ، وقسوتهم . . . ذهبت لأزداد إيماناً بالله ، وخشية منه .

« أخيراً . . . وبعد أن تحقق الأمل الذى طالما راودنى . . . بعد أن رأيت الله ، وكلمته ، وناجيته ، وشكوت إليه . . بدأت رحلة العودة إلى الأرض التى كنت خلالها أحلم بالملاجئ التى سوف أبنيها للمشردين أمثالى . . . وبالبيت الذى سوف يعصمنى من التشرد ، ويمنحنى الأمان الذى افتقدته .

« وعند وصولى إلى الأرض . . . ربت على ظهر الفرس الذهبى معرباً عن امتنانى له . . وإذا بى أصحو من

غفوتى لأجد نفسى أربت على الأرض .
« وتلفت حولى ، فلم أجد
مسحوقاً سحريا .. ولا فرساً ذهبيًّا ..
وفركت عينى حسرة ودهشة . . فقد
تبينت أنى كنت . . . كنت أحلم ! !
« وتنهدت فى ألم شعرت أنه
كان يمزق قلبى . . . وقررت أن أعود
إلى النوم مرة أخرى . . ما دمت
لا أستطيع أن أجد السعادة التى
أنشدها إلا فى الأحلام .
" و . . . واسترسلت فى النوم !!»

* * *

وإلى أبعد من هذا القدر . . . فى هذا « الحلم العظيم» . . لم تشأ " نادية" أن تمضى . فتوقفت لتقدم « موضوعها» إلى مدرس اللغة العربية ليمنحها عليه « الدرجة النهائية» وليسجل بجوار الدرجة النهائية التى منحها لها قوله : « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير» .

وإننى لأعذر مدرس اللغة العربية الذى منح " نادية" على هذا الموضوع « الدرجة النهائية » المقررة له ، إذا كان لم ير فيه إلا أنه : « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير» — أعذره إذا كان لم ير فيه غير هذا . . . فإنه — مثلنا تماماً — لم يكن مطلعاً على ما تكتبه « نادية" لنفسها . . وتخفيه عن أعين الجميع ، إلا عن عينيها التى كانت ترى بها أشياء كثيرة ، لم يكن فى استطاعتنا أن نشاركها رؤيتها إياها . . . ولو أنه كان مطلعاً عليه — مثلما أتيح لنا الإطلاع عليه ،

بعد أن بارحتنا إلى عالمها الخاص الذى كانت تتحرق شوقاً إليه — لكان قد أدرك على الفور : أن الذى امتطى « الفرس الذهبى » وراح يشق به السحاب تلو السحاب . . ويصعد به سماء من بعدها سماء ، حتى التقى بالله . . وكلمه . . وناجاه . . وشكا إليه ، لم يكن هو ذلك الطفل المشرد الذى أعياه التعب فى يوم عقيم ، فنام أمام البنك ، وإنما كانت " نادية " نفسها هى التى امتطت ذلك « الفرس الذهبى » . وهى التى صعدت به إلى السماء .. وهى التى قابلت الله ، وناجته ، وكلمته ، وشكت إليه . لقد امتلك عليها هذا « الشعور » حواسها كلها ، وخيالها كله ، حتى أنساها أن تستخدم ضمير المتكلم المذكر الذى هو الطفل المشرد الذى طلب مدرس اللغة العربية منها ، ومن زميلاتها فى المدرسة ، أن يصورن مشاعره وأحلامه — أجل . . لقد نسيت " نادية " وسط الحلم الأكبر ، والأعظم الذى كان يحتويها — أن تستخدم « ضمير المذكر » فى وصف مشاعر الطفل وأحلامه ، وراحت تستخدم « ضمير المتكلمة المؤنثة » فى وصف مشاعرها هى . . وإحساساتها هى . . وأحلامها هى . . فنراها تقول : « اندفع بى الفرس الذهبى صاعداً . . . صاعداً . يخترق السحاب تلو السحاب . . وأنا (مبهورة) الأنفاس . . أكاد أكون (متحجرة) من هول الأحداث المذهلة » .

* * *

إن " نادية" تتابع « حلمها الأعظم » بإصرار شديد عليه ، وتعلق غريب به، حتى ليمكن القول إن أحلامها جميعاً قد ذابت ، وانصهرت فى هذا الحلم الواحد الذى لم يعد لها من حلم سواه . . فنى ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ — أى بعد أقل من شهر من ذلك اليوم الذى خالت فيه "نادية" نفسها تمتطى فرساً ذهبياً ، وتصعد به إلى السماء ... فتقابل الله، وتكلمه ، وتناجيه — نلتقى بها فى مذكراتها الخاصة وهى تقول :

● « إننى أفكر الآن فى أشياء كثيرة أراها تصيبنى بالملل . . . فالذهاب إلى المدرسة أمله . . والبقاء بالبيت أمله . . والروتين يكاد يقتلنى . وأعتقد أننى لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأنى أحترق . . وبأننى أموت موتاً بطيئاً ! !

« إننى أحس أننى أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . ولكن ، ما هو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله.؟

« ليست عندى أية فكرة عنه .

« أحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون " ناسكة" . . . وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعها . . . وأحياناً أتمنى لو أنى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . .

أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة ، وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها .

« ولكن الأهم من هذا كله هو أننى ، فى كثير من الأحيان ، أشعر برغبة جارفة فى الموت ، لا لسبب . إلا لأننى أريد أن أرى الله . . .

« فى السنة الماضية . . . كنت فخورة جداً بنفسى . . لأننى كنت أفهم معنى كل كلمة أنطق بها ، ومعنى كل شعور أشعر به ، ومعنى كل تصرف يصدر عنى . أما فى هذا العام فإننى لا أكاد أفهم نفسى . .

« إن عاصفة قوية تكاد تقتلع الأشجار أحس بها تجتاحنى . والغريب فى أمرى أننى لا أريد أن أتجاهلها . . ولا أستطيع أن أرفع عنها عينى » .

* * *

وفى يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ — تعود نادية فتكتب :

● « يوم رائع من أيام الربيع . . رائحة الورود تملأ الجو من حولى . ولكن . . . وعلى الرغم من هذا اليوم الرائع من أيام الربيع . . ومن رائحة

الورود التى تعبق الجو من حولى . .
أشعر بحزن عميق يجتاحنى . لماذا . .؟
لا أدرى . ولكن ، يخيل إلى أننى أبحث
عن شيء ضائع ، ولا أعرف طريقى إلى
الوصول إليه . ولكن ، ما هو هذا
الشيء ؟ هذا هو أيضاً مالا أكاد
أعرفه .

« إننى عندما أكون وحدى أقع
فريسة للحزن . . والغريب ، مع ذلك ،
أنى أحب كثيراً أن أبقى وحدى . أفكر
لنفسى . . وأتكلم مع نفسى . .
وأحاسب نفسى . إن التفكير يكاد
يقتلنى . ولكننى — وهذه مشكلتى —
لا أستطيع أن أعيش بغيره . إن " الفكر"
هو حياتى » .

* * *

وفى يوم الاثنين ٤ مايو سنة ١٩٦٤ — تعود " نادية " إلى «الشيء
الذى يكاد يقتلها» . . والذى لا تستطيع ، مع ذلك ، أن تعيش
بدونه . . . . تعود إلى « التفكير » . . وإلى تأمل ما حولها ، ومن حولها —
فتكتب :

● « ما الذى كان يمكن أن تكون
عليه الحياة . . . أو ما الذى كان يمكن
أن تكون عليه الأرض . . . لو لم تكن

هناك سماء ؟ ؟

« هل كانت الحياة تفقد الجزء الأكبر من جمالها ؟

جائز . . .

« ولكننى أتصور أنه لو لم تكن هناك سماء ، فإننى كنت سوف أشعر بقدر أكبر من الحرية . .

« إن الشعور الذى يستولى علىّ هذه الأيام ، هى أن الأرض صغيرة ... صغيرة جداً . . . وأنها تكاد تسجننا بضيقها ، وصغرها . فالبيوت تطبق عليها . . والمبانى العالية تحجب عنا الأفق الجميل .

« ألم يكن من الأفضل لو لم تكن هناك "سماء" حتى نشعر بأنه ليس هناك شيء يحجب عنا ما نريد أن ننفذ إليه بأبصارنا ؟ ؟

« إن السماء . . مع الأرض . . تكوّن فى نظرى سجناً كبيراً . فمتى . . . متى أنجو بنفسى من هذا السجن الكبير ؟»

* * *

وهنا . . . أجدنى محتاجاً لأن أتوقف قليلا . . لأناقش « ظاهرة» .. وأجيب عن « سؤال» .

. . أما « الظاهرة» فهى أن " نادية" — فى أكثر من قول ، وحلم ،
وأمنية — قد كشفت لنا ، بما لا يقبل الشك ، أنها كانت تعيش معنا
فى دنيانا هذه . . بجسدها وبعقلها وحدهما . أما قلبها ، ووجدانها ،
فقد كشفت لنا — وأيضاً بما لا يقبل الشك — أنهما كانا دائماً — وليس
فى لحظة دون أخرى — معلقين بالسماء ، ورب السماء . . يشدانها إليه ،
ويجذبانها نحوه ، ويملآن حواسها كلها اقتناعاً صادقاً — أكمل ما يكون
الصدق وأجمله — بأن الصعود إلى الله، ومكالمته ، ومناجاته ، إنما هو
أمنيتها التى تتضاءل بجانبها أكبر الأمانى . . وحلمها الذى « تبهت»
بجانبه ألمع الأحلام .

أما وقد استوقفتنا — من خلال أقوال " نادية" وأحلامها ، وأمانيها —
هذه « الظاهرة» . . . فإن ثمة « ظاهرة أخرى» مرتبطة بها أشد الارتباط ،
بل لعلها مكملة لها ، جديرة بأن تستوقفنا وتلك هى أن " نادية" ،
وقد امتلأ وجدانها اقتناعاً بأن « الصعود إلى السماء» هو أمنية الأمانى . .
وحلم الأحلام ، فإنها — لم تكن تلعن « الأرض» . . . لم يكن فى نفسها
سخط عليها ، ولا تبرم بها . صحيح أنها ، بكل جوارحها ، كانت
مشدودة دائماً إلى عالم آخر ، عالم فسيح . . فسيح . . عالم « أكثر
شفافية ، وأكثر نقاء» . . . إلا أنها ، مع ذلك كله . . . وعلى الرغم
من ذلك كله ، كانت تحيا « حياتها الأولى» كإنسانة سوية أتم ما يكون
الاستواء . . . إنسانة مزدهرة العقل والضمير والوجدان . . . إنسانة
تطمح ، وتأمل ، وتألم ، وتنافس ، وتتنافس ، وتتطلع دائماً نحو الأفضل ،
وتصل دائماً إلى ما تتطلع إليه .

فلقد التقينا بها ، فى كل ما كتبته ، فإذا هى تشيد دائماً « بالنور»
الذى كانت تراه ، بعينيها ، فى يقظتها ومنامها ، يملأ السماء من حولها . . .
وتسمعه ، بأذنها ، يناديها ويدعوها إلى الصعود إليه . . ولكننا لم نلتق

بها — مرة واحدة — وهى تلعن « الظلام» الذى يطبق على الأرض . . ولم نلتق بها تلعن الأرض نفسها . . . وقصارى ما قالته فى حقها : «إنها ليست سوى سجن كبير أتمنى الخلاص منه» ويقينى أنها لم تصف « الأرض» بهذه الصفة إلا لحساب « السماء» التى كانت تعطيها كل حبها .. وكل قلبها . . وكل تعلقها . .

* * *

. . . وإذا كان هناك ثمة معنى يمكن أن نستخرجه من تعلق " نادية" « بالسماء » ذلك التعلق الغريب الذى التقينا بصورته فى كل سطر. وفى كل صفحة . . من سطور وصفحات مذكراتها الخاصة — فى نفس الوقت الذى لم تكن تدير فيه ظهرها « للحياة الدنيا» ، ولا تضيق بها ، ولا تسخط عليها . . فهذا المعنى هو أن شعوراً داخلياً عميقاً قد استقر فى قلبها ، وجعلها — دون أن تدرى — تدير حياتها كلها وفق ذلك التوجيه العلوى الأسمى الذى يقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

ولقد كانت " نادية" — بكل الحق والصدق — تبتغى فيما أتاها الله « الدار الآخرة » . لقد أتاها الله وجداناً نورانياً وقدراً من الإلهام غير قليل . وبهذا الوجدان النورانى ، وبذلك القدر غير القليل من الإلهام — كانت تبتغى الله دائماً . . . فكانت تصوم ، وتصلى ، وتقرأ القرآن . . كانت تؤمن بالله إيماناً لا حد له . . كانت ترنو نحوه ، وتتطلع إليه ، وتتحرق شوقاً إلى لقائه . وفى هذا الوقت نفسه ، لم تكن " نادية" تنسى « نصيبها من الدنيا» . فكانت — كما أسلفت فى صفحة سبقت — طموحة ، وذكية ، وأنيقة فى الملبس ، والمأكل ، والمشرب . . وكانت متفوقة ليس فقط على قريناتها . . بل كانت متفوقة حتى على نفسها ، وعلى عمرها . .

وربما يبدو غريباً بالنسبة لمن سوف يقرءون هذا الكتاب — أن يعرفوا أن أول جائزة تفوق حصلت عليها "نادية" كانت فى سنة ١٩٥١ . وفى هذه السنة — سنة ١٩٥١ — كان عمرها أربع سنوات فقط . . وكانت الجائزة فى القراءة والمحفوظات الفرنسية . .

ومنذ ذلك التاريخ الذى حصلت فيه "نادية" على أول جائزة من جوائز التفوق ، لم تدع هذه الجوائز تفلت من يدها . فظلت محتفظة بها دائماً . . . ابتداء بهذه الجائزة التى حصلت عليها وهى ما تزال فى الرابعة من عمرها . . وانتهاء بجائزة الامتياز التى حصلت عليها فى عيد العلم سنة ١٩٦٦ باعتبارها واحدة من العشرة الأوائل فى الثانوية العامة : ١٤ جائزة تفوق . . . بعدد السنين الأربع عشرة التى أمضتها فى المدرسة . ابتداء بمرحلة « الروضة » وانتهاء بالمرحلة « الثانوية » ! !

* * *

لقد كان « التفوق » . . وكان « الامتياز» شغلها الشاغل . . . وهو لم يكن فى نظرها قضية « تفوق» أو « امتياز» فحسب ، بل كان أيضاً قضية «كرامة»، ومن هنا كان حرصها علىتفوقها جزءاً لا يتجزأ من حرصها على كرامتها . فبتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة) كتبت فى مذكراتها الخاصة تقول :

● « لأول مرة فى حياتى — أشعر بأننى سوف لا أكون " الأولى" فى اللغة العربية على الفصل . لا أعرف « سبباً معيناً لشعورى هذا . . فقد أديت الامتحان بنفس الحماسة ، ونفس العناية اللتين اعتدت أن أؤدى بهما جميع امتحاناتى . ولكننى ، مع هذا ، أشعر أنى سوف لا أكون " الأولى" . غداً امتحان " المواد الاجتماعية" . ليست عندى أى رغبة فى المذاكرة بسبب ذلك الشعور الذى تملكنى . سأكون حزينة ، غاية الحزن ، لو صدق شعورى وتخلت عنى أولويتى».

وصدق شعور " نادية" . . وأفلتت منها — لأول مرة فى حياتها — أولويتها فى «اللغة العربية» . فقد عادت فى يوم الأحد التالى— ٢٩ مارس— وكتبت فى مذكراتها تقول :

● « أبلغتنى " ريموند" بالتليفون

أنى جئت الثانية فى الترتيب — بكيت كثيراً لهـذا الخبر . وكان أكثر ما أبكانى أن الفرق بينى وبين الأولى لم يكن أكثر من "نصف درجة" . وأعتقد أن الذى أحدث هذا الفرق هو "أعمال السنة" التى لم يعطنى فيها الأستاذ ما أستحقه . على كل حال ، أنا معترفة له بالجميل . فقد جئت الأولى فى "المواد الاجتماعية" . لكننى واثقة من أننى سوف أسترد "هيبتى" فى امتحان نهاية العام . سوف أبذل جهدى كله من أجل ذلك . وأترك الباقى لله ».

وإننى لأذكر ، فيما أذكر عن تعلقها بالنجاح ، وبالتفوق . . . ونظرتها إليهما على أنهما قضية « كرامة . . . وهيبة » ، قبل أن يكونا قضية « نجاح . . . وتفوق » — أنها فى امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رسبت فى مادة « السياسة » — وكان هذا أول رسوب يصادفها فى حياتها الدراسية كلها — ومن هنا ، رفضت رفضاً قاطعاً أن تسلم بأنها يمكن أن ترسب . وأصرت على أن خطأ ما لابد أن يكون قد حدث فى تصحيح ورقة إجاباتها عن أسئلة هذه المادة .. كما أصرت ، من ناحية أخرى ، على أن ترى بنفسها ورقة إجاباتها عن أسئلة « السياسة » . وأمام إلحاحها الذى لم يفتر . . وأمام بكائها الذى لم ينقطع منذ أن علمت بنتيجة الامتحان . . لم يسعنى إلا أن أصطحبها إلى الأستاذ الصديق الدكتور

فتح الله الخطيب ، ورجوته أن يمكنها من رؤية ورقة إجاباتها حتى تستقر ، وتهدأ ، وتنتزع نفسها من الحالة النفسية الأليمة التى انتهت إليها بسبب رسوبها فى تلك المادة .

وبمبادرة طيبة من الأستاذ ذى القلب الكبير . . . وبإدراك واع من جانبه للحالة النفسية التى رأى عليها تلميذته ، قام الرجل فبحث لها عن ورقتها حتى وجدها . . . ثم أخذ يقرؤها ، وبعد أن فرغ من قراءتها — قال لها :

— لقد كان أستاذ المادة متشدداً بعض الشيء فى تصحيحه . . . ولو أننى أنا الذى قمت بتصحيح هذه الورقة لما أمكن أن ترسبى .

قالت :

— إذن . . . فسوف أتظلم رسميًّا إلى العميد .

فقال لها أستاذها الدكتور الخطيب :

— هذا مالا أنصحك به . . . إذ يجب أن تعرفى أن لكل أستاذ طريقته الخاصة فى مادته ، ولا يملك العميد . . ولاغير العميد أن يتدخل فى هذه الطرق . ويكفيك أن تأخذى برأيى . . ورأيى أنك أديت واجبك .

قالت :

— مادمت سيادتك تشهد لى بأننى أديت واجبى ، فهذا فعلاً يكفينى .

* * *

لقد كان صعباً . . . بل كان مستحيلاً — بغير هذا اللقاء الذى تم بين " نادية " وبين أستاذها الدكتور الخطيب أن تهدأ ، أو أن تنتشل نفسها من الحالة النفسية التى كانت قد وصلت إليها . ولكن ، إذا كنت على يقين فى هذه المناسبة من شىء ، فإننى لعلى يقين من أن

رسوبها هذا قد ترك فى أعماق نفسها جرحاً أليماً لعله لم يندمل حتى غادرت دنيانا .

* * *

يأتى ، بعد ذلك ، « السؤال» الذى نود أن نسأله ، وهو : « هل كانت " نادية " — وهى تهوّم دائماً نحو السماء تتعلق عيونها بها . . وتتحرق شوقاً إلى الصعود إليها — هل كانت تعيش فى عالم من صنع أوهامها . . أو كانت تعيش فى واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيديها ؟ » .

وأجيب عن هذا السؤال بسؤال مقابل ، وهو : « هل يمكن اعتبار العروس التى تم عقد قرانها . . ولم يبق أمامها إلا تحديد موعد الزفاف — هل يمكن اعتبار هذه العروس ، وهى تطوف بدور الأزياء باحثة عن أجمل قماش يمكن أن تصنع منه ثوب عرسها ... ثم وهى تقلب أحدث " مجلات " الأزياء باحثة عن أحدث طراز يمكن أن تصنع ثوبها على غراره . . ثم وهى تطوف بأفخر محلات الأثاث لتنتقى منها أرقه وأجمله ، وأرشقه ، لتزين به عش أحلامها — هل يمكن اعتبار هذه العروس وهى تفعل هذا كله ، تعيش فى عالم من صنع أوهامها ، أو أنها تعيش فى واقع حى تزيده هذه الأشياء كلها ، تجسيداً . . . وتحديداً . . . ووضوحاً ؟ »

أعتقد أن الجواب عن ذلك السؤال من البداهة بحيث لا أجدنى محتاجاً إلى تكراره .

وأستطيع أن أقول القول نفسه بالنسبة " لنادية " . فإنها فى تهويمها الدائم نحو السماء . . وفى تعلق قلبها وعينيها بها . . وفى تحرق فؤادها لهفة على الصعود إليها — لم تكن " نادية " فى كل ذلك الذى كشفت لنا

عنه خواطرها ، وكلماتها ، وأحلامها . . تعيش فى عالم من الوهم . .
ولاتبدد نفسها فى « شطحات» من الخيال ... وإنما كانت تعيش فى واقع ..
واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيديها . بل تكاد تعرف الموعد الذى
كانت تحس أنها سوف تسافر فيه إلى ذلك العالم الأفضل . . . العالم
« الأكثر شفافية ونقاء » . . . العالم الفسيح . . الفسيح الذى كانت
تتحرق شوقاً إلى السفر إليه .

فما أكثر ما حدثت أمها — وقبل أن يصيبها أى مرض . . من أى
نوع — بأنها تشعر بأنها سوف تبارح دنيانا هذه وهى ما تزال صغيرة !!

ومع أن قلب الأم كان يرفض ، من أعمق أعماقه ، أن يعدّ مثل
هذا الحديث حديثاً جادا ، فإنها ، أحياناً ، كانت تحب أن تجاريها :

— صغيرة يعنى إيه يا " نادية" . . . أربعين سنة مثلا ؟ ؟

— أربعين سنة ؟؟ دانت متفائلة جدًّا يا ماما .

— أمال كم يعنى ؟ ؟

— أصغر بكثير . . .

— ثلاثين مثلا ؟ ؟

— لأ . . أصغر من كده ! !

وتبارح الطمأنينة صدر الأم . . ويحل محلها جزع مكتوم ،
وضيق ظاهر . . لكنها تتابع السؤال :

— أصغر من كده يعنى إيه ؟ ؟

— يعنى عشرين . . . واحد وعشرين . . . حاجة زى كده ؟

— يا شيخه . . فال الله ولا فالك .

وتشيح الأم بوجهها عن حديث حبيبتها الذى يملأ صدرها همًّا وضيقاً.
ثم لا تبرح أن تتذكر هذا الحديث ، وتذكر به من حولها .. كلما ألمت
بزهرتها الحبيبة أزمة من تلك الأزمات التى كانت تلم بها بين الحين

والحين ، فتجعل هذه النبوءة . . أو هذه السن التى حددتها " نادية " موعداً لمبارحة دنيانا ، قادرة على القفز إلى ذاكرة أمها .

وصدقت نبوءة " نادية " لنفسها . . . ! !

صدق الموعد الذى حددته لمبارحة الأرض إلى السما . . . وفارقتنا وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ! !

وتجرفنى الذكريات . . .

تجرفنى إلى تذكر يوم من أوائل أيام شهر مايو سنة ١٩٦٩ — آخر الأشهر الخمسة الساحقة التى أمضتها "نادية" بالمستشفى . . وأمضيناها معها نقاتل شبح الموت ، ويقاتلنا ، حتى انتصر فى النهاية علينا . . على كل الجهود التى بذلناها ، وكل الليالى التى سهرناها ، وكل الدموع التى سكبناها ، وكل الآلام التى سحقتنا حتى العظام .

فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو ، وكان الظاهر لأعيننا أنها تخطو بخطى واسعة نحو الشفاء . . . فى حين كانت ، فى الغيب الذى لا نعلمه ، تخطو بنفس الخطى الواسعة نحو عالمها الذى كانت تحبه ، وتتمناه — فى ذلك اليوم جلست ملتصقة بى على أريكة كانت موجودة فى غرفتها بالمستشفى . . . ولعلها انتهزت خلو الغرفة إلا منها ومنى ، وسألتنى :

— يا ترى يا بابا مين فينا أحب واحدة إلى قلبك ؟

— لا أحب أن تتصورى أن هناك أباً يعطى أحداً من أبنائه قدراً من الحب أكثر مما يعطيه للآخر . إن كل الأبناء بالنسبة للأب ، وبالنسبة للأم أيضاً ، سواء . ولا أرضى لذكائك أن يتصور شيئاً غير هذا .

— ربما تكون هذه هى القاعدة . ولكن ، لكل قاعدة — كما يقولون — استثناء .

— إذا كان هناك استثناء حتى لهذه القاعدة ، فلعل الاستثناء الوحيد لها هو ما قالته تلك المرأة العربية الذكية ، عندما سئلت عن أحب أولادها إليها ، فأجابت : « صغيرهم حتى يكبر . . . ومريضهم حتى يشفى . . . وغائبهم حتى يعود » .

— إذن ، فأنا الآن . . وبحكم كونى مريضة . . أحب إخوتى إليك ؟

ــ مؤكد . . .

وضحكت " نادية" ضحكة فيها غبطة العصفور ــ وقالت :

ــ وما رأيك فى أن أظل أحبهم إليك ؟ ؟

قلت لها ، وقد استولى على شىء من الدهشة :

ــ كيف . . . هل تنوين أن تظلى مريضة ؟ !

ــ غير معقول طبعاً أن أبقى مريضة طول العمر . . .

ــ إذن . . . ماذا تنوين أن تفعلى ؟

وببساطة شديدة . . شديدة . . كأنها لا تقول شيئاً ــ قالت :

ــ أغيب . . . .

ولو أن " نادية" كانت قد قالت لى كلمة « أغيب » هذه التى قالتها ، فى بساطة شديدة . . شديدة . . وكأنها لا تقول شيئاً ، فى وقت آخر غير هذا الوقت التى كنت أراها فيه تسير بخطى واسعة نحو الشفاء ، لكانت هذه الكلمة جديرة بأن تنفذ إلى قلبى وكأنها طعنة خنجر مسموم . لكننى ــ والحق أقول ــ لم أحس للكلمة ، وقتها ، مثل هذا الواقع فى قلبى .

وعدت لمناقشتها :

ــ تغيبى . . . تغيبى فين . . . تهاجرى مثلا ؟

فكررت ضحكتها التى لم تخل من غبطة العصفور ــ وقالت :

ــ يعنى . . .

واستغرقتها ، بعد هذه الكلمة التى لم تزدنى علماً بما كان يدور فى أعماقها ، استغرقتها سرحة خاطفة ، نقلت الحديث بعدها إلى موضوع آخر . . . .

ومر على هذا الحديث الذى دار بينى وبينها ذات يوم من أيام شهر مايو ، وهى تستعد للخروج من المستشفى الذى لزمته خمسة أشهر

كاملة – مر عليه شهران . . . ثم . . ثم غابت " نادية" . . .

فهل غابت لأنها أرادت أن تظل أحب إخوتها إلى . . وإلينا جميعاً ؟

ربما . . . .

فإن لله جنوداً إذا أرادوا ، أراد .

ولقد كانت " نادية" – ولا أعتقد أننى أحابيها بحسبانى أباً يتحدث عن قطعة من كبده – كانت واحدة من جنود الله الذين إذا أرادوا، أراد .

. . . كانت منهم بطهرها ، ونقائها ، وتقاها . . . .

. . كانت منهم بصومها ، وصلاتها ، وقرآن الله الذى كانت تتلوه بلسانها . . . وتحفظه فى عينيها وقلبها .

. . كانت منهم بصبرها المذهل على ما ابتلاها به ربها ، وكأنما أراد أن يجعل منه امتحاناً لحقيقة إيمانها به . . فاجتازت الامتحان الإلهى بنفس التفوق الذى اعتادت أن تجتاز به كل امتحان دنيوى دخلته ، وسط إعجاب الجميع . . وذهولهم . . وحنوهم . . ودهشتهم .

. . كانت منهم بتقديسها القلبى والعقلى لأمها ، وتطلعها الصادق – أصدق ما يكون الصدق – إلى تعويضها ، وإسعادها ، وإسعاد ذلك القلب الكبير الذى وصفته هى نفسها . . . . «بأنه يعطى . . ويعطى ، دون أن يطلب . . ولن يطلب» .

. . كانت منهم بإيمانها النابع من أعمق أعماقها بالله . . وبالجنة وبالنار . . وبالثواب وبالعقاب . . وبأن للكون إلهاً عادلا لا تضيع عنده مثقال حبة من خردل .

. . كانت منهم أخيراً – وهذا هو أهم مؤهل فى مؤهلاتها – بوجدانها المتجه دوماً إلى الله . . المتحرق شوقاً إلى الصعود إليه . . المتلهف لهفة مذهلة إلى لقائه . . ومكالمته . . ومناجاته .

وأمضى مع الذكريات . . . .

فأتذكر يوماً من أوائل أيام شهر يوليو سنة ١٩٦٩ — نفس الشهر الذى رحلت فيه عن دنيانا فى اليوم التاسع والعشرين منه — فإذا هى تخرج خمسة جنيهات من مدخراتها الخاصة ، وتمد لى يدها بها قائلة :

— خد الخمسة جنيه دى يا بابا . . .

— أعمل بها إيه يا " نادية" ؟

— اشترى بها هدية عيد ميلاد اللى مفروض إنى أقدمها لك .

— لكن يا بنتى دانا عيد ميلادى فى أغسطس . . . واحنا الآن فى أول يوليو. فإيه اللى فكرك به الآن . . . ثم إيه وجه الاستعجال فى حكاية الهدية ؟ ؟

— اعمل معروف . . خد الفلوس واشترى الهدية ، وابقى وريها لى لما تشتريها علشان أستريح .

— يا بنتى . . . .

ولم تدع لى " نادية" الفرصة لكى أتم كلامى . .

— إذا كنت بتحبنى صحيح . . اعمل فى معروف ، ونفذ لى طلبى .

ونفذت لها طلبها .. أخذت منها ، فى أول يوليو ، ثمن هدية عيد ميلادى الذى كان سوف يحل بعد ذلك بأكثر من شهر . . . واشتريت الهدية وأريتها لها . . وما تزال كلمتها ، وهى تقلب الهدية بين يديها ، ترن فى أذنى :

— أهو أنا دالوقت أسعد إنسانة فى الدنيا . . .

وساعتها لم أفهم شيئاً ... ولكنها عندما غابت عنا فى التاسع والعشرين من شهر يوليو — فهمت كل شيء . . . . فهمت أنها كانت تحس ، بل أكاد أقول إنها كانت تعرف أنها ، عندما يحل عيد ميلادى



فى شهر أغسطس . لن تكون معنا . . . وكان هذا هو سر تلهفها الملحّ ، والغريب ، على أن تقدم لى – فى أول يوليو – ما كانت تحب أن تقدمه لى فى شهر أغسطس . . ! !

* * *

وأتابع المضى مع الذكريات . . .

فأتذكر ذلك اليوم الحزين . . اليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٦٩ – وكنا جلوساً فى مدخل البيت ننتظر موعد خروجها الأخير منه للقاء ربها – فإذا بثلاث من مدرساتها الراهبات يصلن فى نفس اللحظة . .

كن قد زرنها قبل ذلك بثلاثة أيام عندما سمعن أنها قد عادت فانتكست ، وأن الخطر قد عاد يتهددها من جديد .

وفى ذلك اليوم – التاسع والعشرين من يوليو – عدن ، على غير موعد ليكررن لها الزيارة . . . فإذا المفاجأة الخارقة فى انتظارهن . ولكنهن لم يتراجعن . . . بل صعدن السلم ، ودخلن البيت الحزين . . . لا ليعزين الأم التى فقدت قلبها فحسب . . بل صعدن لهذا الغرض . . ولغرض آخر أكبر وأسمى ... ليستأذن فى أن يصلين عليها صلاتهن الخاصة .

وقامت الراهبات . . . من أتباع "المسيح" عليه السلام . . . بالصلاة على الشابة المسلمة ، المؤمنة ، وهى ما تزال مسجاة على فراشها ...

وبعد ساعات . . . ساعات قليلة من صلوات أتباع "المسيح" عليها ، كانت هذه الشابة نفسها هناك .. كانت فى المسجد ، تستمع لصلوات أتباع "محمد" عليه الصلاة والسلام على جثمانها . . .

فأى رضى من الله هذا . . . وأى حب . . . وأى من . . . وأى احتضان ! !

وإذ وصلت إلى الراهبات الحانيات ، وموقفهن منها . ... وصلاتهن عليها . . . فإنني أحب أن أسأل سؤالاً :

● هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتى أحببن "نادية "وأحببنها . . . واللاتى تلقينها بأيد حانية طفلة لا تتجاوز السنوات الأربع من عمرها ، ولا ترى الدنيا إلا أنها شجرة ورد لا أثر للأشواك فيها — هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتى تلقينها على صورتها تلك ، وتكونت على أيديهم — شخصيتها . . .وأينعت — بينهن — ملكاتها ،وصفاتها ، وكل مقوماتها — هل كن يرينها بالعين التى كنا نراها بها . . أو أننا نحن كنا نرى فتاتنا بعين خاصة تختلف عن عيونهن . . « عين منحازة » تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها . . وتضيف إليها من الصفات ماليس فيها ؟

لقد استبد بى فضول شديد لأتعرف على إجابة هذا السؤال . . . فإن الإجابة عنه جديرة بأن تثبت نظرتنا إليها ، أو تعود بنا إلى شيء من المراجعة على هذه النظرة يضعها — برغم كل العواطف وفوقها — فى موضعها الصادق ، والصحيح ، والأمين .

ومن ثم ، توجهت بسؤالى إلى اثنتين من هؤلاء الراهبات ، كانت من أكثر مربياتها احتكاكاً بها ، وتعرفاً على كل خصائص شخصيتها . . . فكانت كل منهما أكثر سعادة من الأخرى بأن أتيحت لها الفرصة لكى تقول رأيها فيها . . . وكانت كل منهما حريصة على أن تسجل هذا الرأى كتابة . . .

● فكتبت إحداهما — وهى الراهبة «الأخت مارى لييس» تقول :

« عرفت "نادية " فى الصفوف النهائية من مراحل الدراسة الثانوية . ويمكننى القول إننى شهدت توجساتها ، وآمالها . وكانت مملوءة حيوية ، ونشاطاً . . . تراقب — بوعى — عالم الشباب ، ونفسياته . وقد تألمت

"نادية" كثيراً — وهى لا تزال صغيرة — للظلم الاجتماعى ، والآلام السائدة فى كل مكان . وكانت دائمة التساؤل : " هل من الممكن أن نتغاضى . . . أو أن نكون سلبيين ، وسعداء أمام هذه المصائب؟ وما معنى الحياة إذا هو تركز فى الراحة المادية والمال ؟ وما معنى السلام الذى نشتريه كل يوم بتنازلات من جانبنا ؟! "

« وكانت " نادية" ترفض الحياة العادية بكل أنانيتها ، فاختارت ان تمضى إلى نهاية ما وضعته نصب أعينها . . . وبدأت ، من هنا ، لمغامرة الكبرى . . . .

« لقد كنا نحن الذين عرفناها — أكثر من أى أحد غيرنا — كنا نجد صورة الله فى كل تصرفاتها وتساؤلاتها . . فى شكوكها أحياناً . . . وفى قراراتها وتراجعها أحياناً أخرى . وكان كل من له عينان ليرى ، وأذنان ليسمع ، يستطيع أن يستشف وجود الله ، وعظمته ، فى هذه النفس البشرية !

« إن حياة "نادية" الروحية ، وطريقة صلاتها ، وشعورها بالله ، وبالآخرين . . وفرحها وشعورها بالألم — كل هذه الأشياء كانت خاصة بها ، اكتسبتها بتكوينها ، وأنوثتها ، وثقافتها ، وتجاربها فى الحياة ، واحتكاكها بالآخرين . . وكان معظم كل ذلك مؤسساً على قراءتها للقرآن الكريم الذى كانت تحب دائماً أن يكون بجوارها ، وعلى درجها .

« ولأن "نادية" كانت ترفض الحياة العادية بكل أنانيتها ، فقد روضت نفسها على الصبر ، والتعمق فى صورة الله ، وملكوته . . . وأمام هذا الغذاء الإلهى اكتشفنا شخصيتها المتطورة ، وهذا ماجعل "نادية" قريبة منا . وكنا نرقب محاولاتها للخروج من قوقعتها ، على أن تكون أمينة — فى الوقت نفسه — مع نفسها ، ومع مثلها العليا ، وتساؤلاتها ، وواقعيتها . ووعيها :

« لقد كانت "نادية" عظيمة . وقد استمرت هذه العظمة من معرفتها العميقة لحدود عليها أمام الله . وسوف تبقى "نادية" رمزاً للشباب الكريم القادر على التضحية حتى بنفسه فداء لهذه القيم السامية .

« إنها واحدة من تباشير الربيع الغنى . . ربيع الوعود المشرقة لعالم الغد » .

* * *

● وكتبت « الأخت مونيك » — كبيرة الراهبات بمدرسة « نوتردام ديزابوتر » :

« عندما تمر صورة "نادية" فى خاطرى ، أراها وهى تدخل روضة الأطفال وهى ما تزال فى سن الرابعة . وقد وضحت شخصيتها وهى فى هذه السن المبكرة ، فكانت شديدة الحيوية ، شديدة الذكاء . . . ومنذ ذلك الحين وهى محبوبة من الجميع .

« ولقد استمرت "نادية" على هذا المنوال خلال سنى دراستها كلها حيث نبتت فيها صفات أخرى . فكانت لها شخصية بارزة ... وكانت صراحتها التى بلغت أقصى الحدود من أبرز صفاتها المميزة وعندما كانت تختلف مع أحد مدرسيها مما كان يضطرها إلى الحضور لمقابلتى ، كان بوسعى مناقشتها وإقناعها ... ولم تكن تتركنى أبداً دون أن تعلنى باتباع الإرشادات التى كنت أزودها بها .

« وقد حصلت "نادية" على شهادة الدراسة الإعدادية سنة ١٩٦٣ ، وبعدها حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية سنة ١٩٦٦ . ثم تركتنا لتلتحق بالجامعة ، ولكنها لم تنس مدراستها قط . وكانت أصالتها تتجلى فى المناسبات المختلفة بشعور بالغ الرقة ، كما كانت تقوم بزيارتنا ، بين حين وآخر زيارة مفاجئة تسعدنا بقدر ما كانت تسعدها .

« ولقد عرفنا "نادية" أكثر ، وأكثر ، فى أثناء مرضها . ومع

أنه لم يكن فى استطاعتنا أن نفعل لها شيئاً نخفف به من حدة الآلام التى كانت تعانيها ، إلا أنها كانت قادرة على أن تشعرنا بأن زيارتنا لها تقوم بدور ملحوظ فى رفع روحها المعنوية .

« وأمام شجاعتها فى احتمال الألم ، كنا نتركها ونحن أشد ما نكون حزناً عليها . . . وأشد إعجاباً بقوة شخصيتها ، وبإيمانها الشديد بالله ، وبالأطباء الذين كانوا يعالجونها ، دون أن تفقد الأمل فى أنها سوف تشفى .

« لكن الله لم يرد . . . وانتقلت "نادية" إلى جواره . . . وحققت مثلها الأعلى ؛ وكل رغباتها النبيلة .

« وهى هناك تطل على كل الذين أحبتهم . . . والذين مازالت ، بالنسبة لهم ، حاضرة بينهم . وسوف تظل ذكرى « نادية » حية دائماً فى نفوسنا ، إذ لا يمكن لكل من عرف "نادية" أن ينساها » .

* * *

وهكذا ترى أن النظرتين لم تختلفا فى شىء . لقد كانت الراهبات الطيبات التى تلقينها بأيد حانية طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها . . . وظلت بينهن تنمو وتترعرع . . وتترعرع معها ملكاتها ومواهبها ، ولم تتركهن منذ ذلك الحين إلا لتدخل الجامعة — كانت هؤلاء الراهبات الحانيات يرينها بالعين نفسها التى كنا نحن نراها بها . فلم تكن عيننا إذن عيناً « منحازة » تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها ، وتضيف إليها من الصفات ماليس فيها .

وليس لهذا الاتفاق فى النظرتين : نظرة الراهبات الطيبات . . . ونظرتنا . . . غير معنى واحد . ذلك أن شيئاً واحداً من مقومات شخصيتها . ومن عناصر شواغلها ، وآمالها ، وآلامها ، لم يكن مبهماً أو غامضاً

بالنسبة لكل من عايشها ، وعرفها ، وأتيحت له فرصة الاحتكاك المباشر بها . لقد كانت «كتاباً مفتوحاً» بالنسبة لجميع من عرفوها . . . كتاباً تسهل قراءته على من يجيدون القراءة كل الإجادة . . . وعلى من لا يجيدون القراءة إلا بعض الإجادة . . سواء بسواء .

ولكم كانت دهشتى عندما قرأت ما كتبته عنها الراهبتان الطيبتان ، ووجدت أن أشياء كثيرة مما كتبتاه عنها ، تكاد أن تكون قد جاءت — وبنفس حروفها — فيما كتبته عنها . . . وكأن الراهبتين الطيبتين قد قرأتا هذه الصفحات، وتأثرتا بها ، وانفعلتا معها ، مع أنهما لم يريا — بعد — سطراً واحداً من سطورها .

لقد تحدثت كل منهما عن شخصيتها التى كانت بارزة . . . وعن صراحتها المطلقة التى كانت واحدة من أبرز ميزاتها . . . وعن أحزانها من أجل الآخرين ، وتألمها لآلامهم . . . وعن رفضها للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها . . . وعن تعلقها ، بسبب ذلك كله ، بالله . . . وملكوته ... وقرآنه الذى قالت إحدى الراهبتين إنها — أعنى "نادية"— كانت حريصة على أن تضعه دائماً بجوارها . . وفوق درجها ! !

وتحدثتا عن شجاعتها المذهلة فى احتمال آلام مرضها . . وهى شجاعة قلت عنها فى صفحة سبقت إنها كانت مثار دهشة أطبائها ، وإعجابهم فى وقت معاً !

ومن الغريب حقًّا أن يجىء حديث إحدى الراهبتين الحانيتين عن «رفض نادية للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها» متفقاً تماماً مع آخر تشخيص طبى لطبيبها المعالج . فلقد قال لنا فى آخر مرة رآها فيها ، وكان ذلك قبل رحيلها بأسبوع واحد فقط ، قال لنا : «إنها ، الآن ، سليمة تماماً من كل مرض عضوى . . أما كل مظاهر المرض العضوى التى

نراها عليها ، فليست إلا تعبيراً عن رفضها الحياة » . ثم نصحنا بأن نحضر لها طبيباً نفسانياً يعالج نفسها . . . أما هو فإنه يرى أن دوره فى علاجها قد انتهى .

وجاء الطبيب النفسانى ليختلى بها ساعتين ، خرج بعدهما من عندها مؤكداً تقرير صديقنا أستاذ الأمراض الباطنية من أنها تمر بحالة « رفض للحياة » . وأضاف : « إن هذه الحالة تعتبر من أخطر الحالات التى يمكن أن يواجهها الطبيب ، ولو أصر المريض عليها لكان معنى ذلك أن تذهب كل جهود الطبيب إلى البحر » !!

* * *

ولست أدرى ما إذا كان عيباً من عيوبها ، أو ميزة من ميزاتها ، أنها كانت إذا أصرت على شىء فلن يستطيع أحد أن يحولها عنه . ولقد كانت "نادية" مقتنعة ، أقوى ما يكون الاقتناع ، بأن حياتنا العادية هذه... بكل ما تنطوى عليه من ظلم ومن آثام وآلام ، لاتستحق منها أن تحياها . لقد كانت تتحرق شوقاً إلى « الحياة الأخرى » حيث الصفاء والنقاء ، والسلام ، والحب : كانت تحلم بتلك الحياة ، وتتطلع إليها ، وتستعجل اللقاء بها . ومن هنا ، كان صعباً . . . بل كان مستحيلا أن تسمح لطبيب بأن يحولها عن اقتناعها . . . أو أن تعطيه الفرصة لكى يطفىء — ولو قليلاً — من لظى شوقها .

ولكن . . لأنها كانت مؤمنة بالله ، وبالثواب ، وبالعقاب — أعمق ما يكون الإيمان ، وأقواه ، وأنقاه — لم تستعجل الوصول إلى « الحياة الأخرى » من طريق تحرمها رضوان الله . . . وتباعد ما بينها وبين جناته التى كانت لاتتطلع إلى شىء ، بقدر ما كانت تتطلع إلى رياضها . ومن هنا : صبرت . . واحتملت حتى جاءها نداء ربها . . . حتى سمعت « الصوت البهير » الذى أحسبها قد عثرت على سعادتها . . . كل

سعادتها . . ساعة أن استطاعت أن تلبى نداءه .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

* * *

إن أشد ما يمسح على جراح قلوبنا التى أدماها رحيلها المبكر غاية التبكير ، هو يقيننا — أصدق وأتم ما يكون اليقين — أنها هناك بينهم ...

. . بين أولئك الذين تجرى من
تحتهم الأنهار فى جنات النعيم .

. . بين أولئك الذين هم فى
جنات ونهر . فى مقعد صدق عند
مليك مقتدر .

. . بين أولئك الذين يدخل عليهم
الملائكة من كل باب . سلام عليكم
بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

لقد تعرفت " نادية" على مكانتها
عند ربها ، قبل خمس سنوات من
رحيلها عن دنيانا — تعرفت " نادية" على هذه المكانة عندما كتبت فى مذكراتها فى فبراير سنة ١٩٦٤ تقول :

● « أماه ما أحلى اللقاء . . .
« إنى أسمع الصوت البهير ...

وإشارة الملكوت نحوى والنفير
أماه هذا الضوء من ربى القدير
ونداؤه : ليلى . . هبى من نوم
صغير
« ليلى اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
« أماه إنى صاعدة . . أماه
إنى فى حبور
« أماه لا تبكى . . ففى
جناته أحيا وأطير .

* * *

ولست أستطيع ،وأنا أروى هذه الصفحات من حياة ابنتى ،أن أنسى أنه كان " لنادية "عند مغادرتها المستشفى — وفى أحضانها وأحضاننا جميعاً ، أمل زاه بأنها قد سلمت من كل خطر كان يتهددها — لست أستطيع أن أنسى أنه كان لها عندى مطلب : أن أصطحبها إلى أى مكان ، وكل مكان تحب أن تذهب إليه . وكان وعداً صادقاً منى بأننى سوف أضع نفسى تحت تصرفها فى كل ما تريد أن تفعل . . . ولم يكن هناك شىء يمكن أن يسعد قلبى ، ويمسح عنه أحزان الأشهر السبعة الأليمة ، والمريرة التى عشتها بجوارها أقاتل اليأس ، وأتقرب إلى الأمل . . أكثر من أن أراها وقد توافرت لها القدرة على تحقيق ما تريد أن تفعل .

وحققت " لنادية" ما أرادت . . . اصطحبتها إلى كل مكان أحبت الذهاب إليه . فذهبنا يوماً إلى «كازينو ميرلاند» . . . ويوماً آخر ذهبنا إلى « فندق شبرد» . . . ويوماً ثالثاً ذهبنا إلى «كازينو قصر النيل» . . . ويوماً رابعاً اصطحبتها معى فى السيارة ، فطافت بشوارع القاهرة التى كان قد مضى عليها أكثر من سبعة أشهر لم تر أضواءها .

وهكذا ، . . لم يعد هناك مكان أحبت " نادية" الذهاب إليه ، وحيل بينها وبينه . . . لم يعد هناك من الأماكن التى أحبتها . . . وأحبت الذهاب إليها بكل ما انطوت عليه جوانحها من حب ، ومن شوق ، ولهفة . . غير « السماء» . . . وحتى « السماء سافرت » "نادية " إليها .

هى .. ونفسها !

ترى .. هل حمّلت "نادية" نفسها الغضبة فوق ما تطيق ، حتى ناءت هذه النفس – قبل الأوان – بما احتملت .. ؟

سؤال ليست الإجابة عنه بالشىء الصعب .. بل هى إجابة نستطيع أن نصل إليها فى سهولة ويسر ، من خلال أفكارها التى عرفناها .. ومن خلال شواغلها التى لمسناها .. ومن خلال المشاعر الكبيرة والعميقة التى رأيناها تعتمل فى أعماقها .. وتحمّلها من أحزان النفس وآلامها مالم تستطع أن تحتمل .

فإن فتاة تعيش – وهى ماتزال فى الرابعة عشرة من عمرها – « ثورة الجزائر » ،بكل كيانها .. وبكل حماستها وحبها .. فتكتب عنها القصص وتقول فيها الشعر ، وتحتفظ بين أوراقها الخاصة جدًّا بصور قادتها ، وأبطالها ، وشهدائها ، وكأنهم بعض أفراد أسرتها . !!

ثم تذرف الدموع سخينة من أجل كاتب فرنسى حر « ألبير كامى » الذى لم تعرف منه غير فكره المفتوح ، وغير تعاطفه الوجدانى مع ثوار الجزائر الذين كانت تعيش بكل قلبها معهم ، وتسرح بخواطرها إلى أرضهم ، وتتمنى بين ما تتمناه من أغلى الأمانى أن تكون بين صفوفهم لكى تقاتل معهم ، وتنتصر معهم ، أو تستشهد معهم على تلك الأرض التى عشقتها ، والتى قالت عنها فى قصتها : « أمنية » – المنشورة فى غير هذا المكان من هذا الكتاب – « إنها ستظل عربية.. عربية.. عربية» على الرغم من أنها – أعنى الجزائر – كانت ماتزال أسيرة فى قبضة الفرنسيين..

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرنسيين كانوا ما يزالون ينظرون إليها باعتبارها امتداداً طبيعياً لبلادهم .. لفرنسا !!

ومن عجب – وما أكثر ما يدعو إلى العجب فيما كان يصدر عن فتاتنا ، وبخاصة فى أيامها الأخيرة – أن تسمعها أمها ، فى اللحظات السابقة مباشرة على رحيلها عن حياتنا الدنيا ، تتمتم لنفسها بصوت واهن لا يكاد يسمعه أحد .. وكأنه يصل إلى الأرض من قمة جبل – قائلة وهى ترمى بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً :

– رائعة .. رائعة !

وتسألها أمها فى فضول :

– من هى يا ابنتى .. ؟

فتجيبها " نادية " ، وهى ماتزال ترمى بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً قائلة :

– الجزائر ... !!

ولم تفهم أمها من هذه الإجابة شيئاً أكثر من أن ابنتها كانت ترى « الجزائر » رأى العين ، فى حين لا يشاركها أحد من كل الذين كانوا يجلسون حولها هذه الرؤية .. ولم يسع الأم إلا أن تحترم ما تتمتم به ابنتها لنفسها ، وتسكت عن الكلام معها .. مكتفية بأن تذرف الدموع فى صمت جليل .

* * *

وإن فتاة تعتصر قلبها الصغير عصراً حتى لتحيله إلى دموع تنساب من عينيها حزناً على بضعة من تراب وطنها وقعت أسيرة فى قبضة أعدائه ثم لا تضن بدموعها من أجل مجموعة من رياضيي بلادها سقطت بهم الطائرة فى قاع المحيط ، دون أن تربطها بواحد من تلك المجموعة صلة ؛

إلا صلة الأخوة فى الوطن .. ثم تألم ، أعمق ما يكون الألم ، من أجل فنان أجنبى " كفان جوخ " يضطهده الناس .. وتضطهده الأقدار .. فتحزن لحزنه ، وتتعذب لعذابه ، وتعطيه من مذكراتها الشخصية حيزاً لم تعطه لشأن من شئونها .. ولا لألم من آلامها .. ولا لأمل من آمالها .

وإن فتاة تبكى ، أحر بكاء ، ساعة أن تسمع بنبأ اغتيال الرئيس الأمريكى " جون كيندى " .. ثم تفسر ، بعد أن تهدأ ، السر فى بكائها الحار بأنه لم يكن من أجل شخص " جون كيندى " بقدر ما كان من أجل زنوج أمريكا الذين شعرت ، ساعة سماعها لذلك النبأ ، أنهم فقدوا باغتيال " كيندى " زعيماً كان البادى من أقواله وأفعاله يدل على أنه سوف يصبح نصيراً حقيقياً لهم ، ولحقوقهم المقدسة فى الحياة والحرية !

* * *

إن فتاة هذه هى حالها .. وهذه هى حقيقة شواغلها ، وأحزانها ، وآلامها .. لم يكن ممكناً إلا أن تنوء نفسها الغضة بما حملت .. ولم يكن ممكناً إلا أن يسقط كيانها الصغير تحت وطأة ذلك العبء النفسى الثقيل الذى كان مستحيلا عليها احتماله .

لقد كانت نفسها المرهفة تطوف بها حول الدنيا كلها : حول من تعرف ومن لا تعرف . حول من يجمعها بهم الدين ، والجنس ، واللغة وحول من لا يجمعها بهم دين ، ولا جنس ، ولا لغة .. كانت نفسها المرهفة هذه أشبه ما تكون بطائر مهاجر .. لا يستريح إلى غصن ، ولا يستقر على فنن ، وتظل رحلته إلى الأرض التى يقصدها شاقة ، ومضنية ، وقاسية ، حتى يعثر أخيراً على الأرض التى يقصدها .. أو يموت قبل أن يصل إلى هذه الأرض !

وكالطائر المهاجر . . كانت نفس "نادية". ولقد نجح طبيبها المعالج "جمال مجاهد" فى أن يستكشف نفسها مع استكشافه لمرضها .. ولأنه استكشف هذه النفس، وما يعتمل فى أعماقها، على الرغم من كونه أستاذاً فى الأمراض الباطنية، وليس فى أمراض النفس، فقد وصف لها — وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٦٨ — كتاباً تقرؤه . وكان الكتاب هو : « الوادى المقدس » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقال لى الطبيب الصديق ، فيما بينى وبينه .. وبعد أن وصف لها « الوادى المقدس » كعلاج لمرضها : « إننى أشعر بأن ما تشكو منه إنما هو علة من علل النفس، أكثر مما هو داء من أدواء الجسد ، وأعتقد أنها سوف تخلص من كثير مما تشكو منه بقراءتها لهذا الكتاب » .

وكان « الوادى المقدس » — حقيقة — واحداً من الكتب القليلة الرفيعة التى تستطيع أن ترتاد بالنفس البشرية شاطئ والسكينة والاطمئنان، وتنفى عن هذه النفس كثيراً من قلقها إن كان بها قلق .

وجاءت "نادية" بكتاب « الوادى المقدس » وقرأته .. وتوقفت طويلا عند الصفحات الأولى منه ، وكتبت على هوامشها : « رائع .. رائع » . كانت الصفحات التى توقفت « نادية » طويلا عندها ، هى هذه التى يعرف فيها "د . محمد كامل حسين" الوادى المقدس بقوله :

« الوادى المقدس هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من الزمن ، « وهو الحال النفسية التى تسمو بها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل .

« هو حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيماناً قوياً خالصاً لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف . هو حيث يملك عليك هذا

الإيمان عقلك كله وإرادتك كلها .
هو حيث تقف خاشعاً فى غير رهبة ،
خاضعاً طواعية للمثل التى ترضاها
لنفسك وإن لم يشهد عملك رقيب ، لا
يحملك على مشقة ذلك إلا الإيمان
وحده ، لا ترجو على ما تعمل جزاء
ولا تخشى عقاباً .

« هو حيث يحتوى قلبك حب
عميق خال من كل غل أو حقد ،
لا يعتريك فيه قلق أو ندم ، ولا
يصيبك فيه خيبة أو يأس .

« وهو حيث تهتدى إلى الحكمة
والتفكير المستقيم . حيث تطلع على
حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة
وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا
تردى فى ظلام الجهل أو ضباب
الخطأ .

« وهو حيث آمالك كلها خير
وأحلامك كلها جميلة . لا يقع
الشر منك ولا يقع الشر عليك .
حيث تكون الطبيعة ، وجسمك ،
وعقلك ، ونفسك متوافقة توافقاً
موسيقياً تكمل به السعادة الإنسانية .

« وهو حيث تسمع صوت ضميرك

صريحاً واضحاً آمراً بالخير فى غير لبس
هادياً إلى الحق فى غير تردد ، كأنه
صوت الله .

* * *

فى « الوادى المقدس » تتحقق
لك أحلام كلها خير

« يخيل إليك فيه أن القوى الطبيعية
زال عنها شرها كله ، ولم يبق منها
إلا خيرها . فالنار تضىء ولا تحرق ،
والفراشة تشتاق إلى اللهب فتقع عليه
ولا يصيبها منه أذى .

« ويخيل إليك فيه أنك بمعزل
عن الزمن وما يحدثه فى أمور الناس
من فساد . عالم يشمل فيه الخير كل
شىء ، وفيه يتحقق أمل كل مخلوق .
صفات ليست غريبة على جنة
الفردس .

« الوادى المقدس يكون حيث
تريد وحين تريد ، لا يحده مكان
ولا زمان . . لا يحده تعريف ولا وصف
بعينه ، فحيثما تطهرت نفسك . .
وحيثما عملت عملا جميلا فثم واديك
المقدس .

« واديك المقدس هو المأوى الذى يقيك عواصف الشر ، هو كمال سعادتك إن كنت سعيداً ، وهو أملك الوحيد إن كنت شقياً ، ولا غنى لك عنه فى حالتى النعيم والبؤس . هو فى النعيم هداية . . وفى البؤس أمل وعزاء .

« فإن كنت ممن يعملون الخير عفواً ، ويتجنبون الشر عرضاً دون أى إيمان خالص أو حب عميق أو حكمة واضحة ، فإن الخير الذى تعمله لا يجلب لك الرضا الذى تطمئن به النفس الإنسانية ، فهو خير أبتر لأنه فى غير الوادى المقدس .

« والوادى المقدس هو جنتك التى تتقى بها ظلم الظالمين ، فيه ترى نفسك أعظم خلقاً وأعلى قدراً ممن ظلموك ، ويكفيك هذا السمو مرضاة لك دون أن تثور فيك عاطفة سقيمة مرذولة كالانتقام أو الثأر من الظالمين . والظلم والانتقام سلسلة من الشر متصلة مفرغة لافكاك منها .

« فى الوادى المقدس ينظر المتطهرون إلى غير المتطهرين من الظالمين مشفقين عليهم ، كما ينظر أهل الجنة إلى أهل النار .

* * *

« والنظام القائم بين الناس ، حتى اليوم ، فيه مرتفعات وسهول ووديان وفوق المرتفعات أقزام هم دونك قدراً وهم أقل منك علماً وحكمة وخلقاً ، ولكنهم يتحكمون فى أمور حياتك بقوة ارتفاعهم عنك ، فهم أعلى منك وإن لم يكونوا أطول قامة ، ولا أعظم نفساً .

« وفى الوديان قوم يرون أنك منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك . أما فى الوادى المقدس ، فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير يسمو فيه المظلوم — وإن كان متواضعاً — فوق الظالم ، وإن بلغ السماء عظمة . وشغل الناس بمجده وجبروته ، ذلك أن الظالم لا يستطيع أن يستمتع بأمن الوادى المقدس مادام ظالماً .

« فإذا رأيت نفسك فى قبضة « شر لا تستطيع له ردا ، وإذا اعتراك

اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة ،
وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة
فى النظم التى لا تستطيع تغييرها —
إذا حل بك هذا الظلم ، فليس لك
إلى النجاة من سبيل إلا أن تأوى
إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص
من اليأس والقلق .

* * *

كانت تلك هى الصفحات الأولى من « الوادى المقدس» التى توقفت "نادية" طويلا عندها .. لتكتب على هوامشها ، بعد ذلك التوقف الطويل « رائع .. رائع » وكأنها تصفق للمؤلف فى حرارة وإعجاب . إلا أن الكتاب ، مع ذلك ، لم يحدث بنفسها القلقة المرهفة ، كل الأثر الذى كان طبيبها المعالج ينشده من وراء نصيحته لها بأن تقرأه .. ولم يكن لذلك من سبب إلا أنها كانت تضع إحدى عينيها على الكتاب ، على حين تضع عينها الأخرى على حياتنا الدنيا ، وعلى ما يدور فوق مسرحها الكبير من مآس كثيرة ، ومريرة ، تكفى كل واحدة منها لأن تبدد من نفسها كل أثر طيب يمكن أن يتركه « الوادى المقدس » فيها .. ولست أرى فى هذا ما أعده غريباً بالنسبة لها . فلقد التقينا بإحدى مربياتها — الأخت الراهبة « مارى ليس » — وهى تحدد لنا بعض ما كان يشغلها ، ويعتمل فى أعماقها بقولها :

« كانت "نادية" ترفض الحياة
العادية بكل أنانيتها . . وكانت
دائمة التساؤل : هل من الممكن أن
نتغاضى ، أو أن نكون سلبيين

وسعداء أمام هذه المصائب ؟ وما معنى
الحياة إذا هى تركزت فى الراحة والمال؟ وما
معنى السلام الذى تشتريه كل يوم
بتنازلات من جانبنا ؟ »

وإننى لأعد هذا الذى قالته عنها مربيتها ، فى سطر أو سطور ، أدق تلخيص وأصدقه لمأساة حياة فتاتنا كما عرفناها نحن ، وعشناها ، وعانيناها . فلقد كانت حياتنا الدنيا ، بوجهها القبيح ، تعذبها .، كان إنكار الأفراد بعضهم بعضاً ، واضطهاد الجماعات بعضهم بعضاً يقلقها .. ويؤرقها .. ويفسد عليها طعم الهناء الذى كان من حق عمرها عليها أن تدع لنفسها الفرصة لكى تتذوقه وتعيشه .

وما أحسب أن "نادية" قد اختارت لنفسها « طريق العذاب » بإرادتها ، بل هو شيء خارج تماماً عن تلك الإرادة ، فإننى أراها قد حملت إحساساتها بآلام الآخرين ، وعذابهم ، وأحزانهم ، كما حملت أية قسمة من قسمات وجهها .. ليس لها يد فى هذه كما ليس لها يد فى تلك .. وإنما هكذا خلقت ، ولم يكن لها من خيار .

على أن هذه الصورة الغارقة فى رهافة الحس التى خلقت عليها " نادية " ليست مطلقاً بالصورة التى تدعونا إلى أن نأسى من أجلها .. بل هى ، على العكس من ذلك ، صورة تدعو إلى الاعتزاز العميق بأن خلقت فتاتنا عليها ، على الرغم من أنها — أعنى رهافة حسها — قد أوردتها ، وهى ماتزال تخطر نحو أجمل سنوات عمرها ، موارد الألم والعذاب . فليس هناك أجمل بالنسبة للإنسان . . أى إنسان .. من أن يكون إنساناً بحق . . وهو لن يكون إنساناً بحق إلا إذا أحس بآلام الآخرين ، وعاش عذابهم ، وتألم لآلامهم ..أما ذلك الذي يغلق نفسه علي نفسه .. ويوصد باب قلبه دون أحزان الآخرين ،

وآلامهم ، فهو يمكن أن يكون أى شىء ، إلا أن يكون إنساناً جديراً بكلمة « إنسان » .

وإننى لأذكر — بالكثير من الاعتزاز والرضا النفسى — ذلك اليوم الذى عادت إلينا فيه "نادية" من الجامعة ، وهى محزونة القلب باكية .. وكان السبب فى حزنها وبكائها أن كمسارى « الإمينوبوس » الذى كانت عائدة به هدد سيدة فى عمر جدتها بالصفع على وجهها ، وهم بأن يفعل ذلك لولا أن منعه نفر من الركاب . !!

قالت لى "نادية" وهى تحكى لى الحكاية :

— لقد تصورت أنا هذه السيدة العجوز هى جدتى ، وأن الكمسارى قد نفذ فيها تهديده وصفعها فعلا على وجهها .

قلت لها ، محاولا التخفيف عنها :

— ولكن .. بما أن ذلك لم يحدث ، فليس لك أن تبكى .. ولا أن تحزنى .

قالت :

— إذا كان ذلك لم يحدث ، فلسبب خارج عن إرادة الرجل .. فقد تكاثر عليه الركاب ومنعوه من تنفيذ تهديده . أما لو كانوا قد تركوه لإرادته لما تردد لحظة فى أن يصفع هذه السيدة التى كانت فى سن جدتى .

ثم أضافت ، وهى ماتزال غارقة فى حزنها من أجل تلك السيدة العجوز :

— لقد أعتزمت أن أشكو فى هذا الكمسارى إلى رؤسائه . ومن أجل هذا التقطت رقم « الأمينوبوس» ، كما جئت بأسماء بعض الركاب الذين شهدوا الحادث ، وعناوينهم !

قلت لها :

— أريحى نفسك .. فإن رؤساء هذا الكمسارى لن يفعلوا له شيئاً .. ولو كان هو يعلم أن رؤساءه قادرون على محاسبته ، لما أقدم أصلا على ما أقدم عليه .

فنظرت إلىّ ، وقد امتلأت عيناها بالدهشة من إجابتى ، وقالت :

— ليكن ما تقوله صحيحاً ، فإن ذلك لن يمنعنى من أن أنفذ ما اعتزمت... على الأقل لكى أريح ضميرى .

* * *

وهكذا كانت عينا "نادية" مفتوحتين دائماً — وأشد ما يكون الانفتاح — على « العذاب » .. تلتقطانه من أى مكان ، ومن كل مكان من أى شىء ، ومن كل شىء .. من مشهد تشهده ، ومن كتاب تقرؤه ومن صورة تراها ثم لاتترك النسيان يجور عليها .. بل تحتفظ بها بين أوراقها الخاصة لكى تعود ، بين الحين والحين ، فتعاود النظر إليها — كصورة ذلك الراهب الذى أحرق نفسه احتجاجاً على الحرب فى « فيتنام » والتى حدثتك عن أننا وجدناها محتفظة بها بين أوراقها .. وكأنها كانت تريد أن تحتفظ بصورة « العذاب » بين أغلى ما كانت تحفظ من ذكريات !!

وهى والآخرون !

كانت "نادية" فى كل تصرفاتها ، وفى جميع مراحل عمرها ، « إنسانة » بحق .. فهى كانت إنسانة تحملها إنسانيتها ما لا طاقة لها به .. تأسى إلى حد البكاء بالدموع — من أجل كثيرين لم ترهم ، ولم تعرفهم ، بل لم تعاصرهم . ومن ثم فإنها لم تعدم ، حين غادرت حياتنا الدنيا ، كثيرين يأسون من أجلها ، ويذرفون دموعهم حزناً عليها .. على الرغم من أنهم لم يروها ، ولم يعرفوها ، ولم يسمعوا بها قبل أن يروها خبراً فى صفحة الوفيات . ومن هؤلاء طالب بكلية الطب بالمنصورة ، اسمه : « محمد على الخزنجى » . لن أستطيع ، مهما حاولت ، أن أنسى أساه عليها .. وحزنه من أجلها . وهو ؛ فى تقديرى ، لم يهتز تلك الهزة العنيفة التى اهتزها إلا لأنه ، كما وضح من السطور التى كتبها لى — على غير معرفة — معزياً فيها ، يحمل نفس تركيبها الإنسانى : نفس المشاعر المرهفة ، ونفس التألم لآلام الآخرين ، ونفس الحزن لأحزانهم ، ونفس العذاب لعذابهم .

وإنى لأستأذنك فى أن أدعوك لتقرأ معى رسالة طالب الطب الذى لم ير "نادية" .. ولم يعرفها .. ولم يعرف منها غير صورتها التى نشرتها صفحة الوفيات . إنى أدعوك لذلك لأحفظ عليك إيمانك «بالإنسان» .. وبنقائه .. وبأنه ، على الرغم من كل شىء ، لايزال أقوى من ذلك الضباب الكثيف الذى كثيراً ما يغشى إنسانيته إلى حد يكاد يقودنا إلى شىء كبير من اليأس منها ، إن لم يكن إلى كل اليأس منها .

ولنقرأ معاً رسالة طالب الطب :

« سيدى ...

« لست أدرى بالتحديد ما هو ذلك الشيء الذى يدفعنى إلى الكتابة إلى إنسان لا يعرفنى ولا أعرفه . ربما يكون ذلك ما يسمونه بعملية التفريغ النفسى .. وربما أى شيء آخر .. لا أدرى ..

« سيدى ..

« فى صباح الخميس الماضى .. وبينما أتصفح الجريدة ، وقعت عيناى على صورة فتاة رقيقة صغيرة . . ربما تكون فى نفس عمرى . كانت تبتسم . . وكأنها تبتسم لكل أمنيات الأيام الآتية . كانت طيبة لاتدرى أن بسمتها تلك ستكون يوماً ما دعوة للآخرين فى يوم إحياء ذكرى رحيلها .

« طويت الجريدة .. وأخذت أصابعى تعتصرها فى ألم وكأنها تحتج على ما حدث . أغمضت عينى ، ورحت أسائل نفسى : ترى .. ماذا كان يضير القدر لو أنه أعطى "نادية" بضع سنين قليلة أخرى ، تملأها بالحياة .. وبالسعادة .. وبالأمل ؟ !

« ترى .. أى حكمة تلك التى
تكن فى قتل الزهور قبلما يرحل الربيع؟
« ترى .. أى ذنب ارتكبه ذلك
الكائن الرقيق ليوضع ـ وحده ـ فى قبر
من الظلام والصمت ؟ !
« سيدى ..
« صدقنى .. لن أصلى بعد الآن .
لن أصلى حتى تبرأ أصابع الأطفال
المشلولة دون ما ذنب جنوه . لن أصلى
حتى تتمكن الزهور من أن تحيا
ربيعها كاملا .

« سيدى ...
« أرجو احتمالى .. فربما الآن
فقط .. بعد تلك الكلمات . . الآن
فقط . .. أشعر أننى أريد أن أصرخ
فى وجه القدر .. أصرخ كل يوم ..
كل ساعة .
« سيدى ...
« أريد صورة "لنادية" لكى
أضعها على مكتبى إلى جوار صديقتها
الفيتنامية الصغيرة التى ماتت لأنها
التقطت قنبلة كانت تحسبها دمية
من تلك التى يلقيها الأمريكيون على
مدارس « هانوى » فى أعياد الطفولة . . .

« وفى أعياد الميلاد !!

« سيدى ...

« أرجوك .. أعطنى الكلمات التى
تحكى أيام "نادية" : طفولتها . .
طموحها .. آلامها .. آمالها .. أحزانها ..
ومعذرة إذا كنت قد آلمتك . . فأنا
لا أقصد . . فأنا نفسى أتألم . .
أرجو أن تقدر نوعيتى .

« عزائى لك . .. ولكل الذين
يريدون العدالة من القدر بأن يمنحهم
الحق فى سنين قليلة لا أكثر . .
عزائى لنفسى فى الآخرين . . فى
الزهور »

* * *

تلك كانت رسالة « إنسان » ممن أسوا لموت "نادية" وبكوا لفراقها دون أن يروها.. ودون أن يعرفوها. ولقد قلت لك إن هذا الطالب الإنسان لم يهتز تلك الهزة العنيفة التى اهتزها إلا لأنه يحمل فى أعماقه نفس «تركيبها الإنسانى »، ونفس إحساساتها ، ونفس نوازعها . ومن الغريب حقاً أن يتضح ذلك فى إفصاح الطالب الإنسان عن أنه يحتفظ على مكتبه بصورة لفتاة صغيرة من فيتنام ماتت لأنها التقطت قنبلة أمريكية كانت تحسبها دمية .. فى الوقت الذى كانت فيه "نادية" تحتفظ بين أوراقها الخاصة بصورة أول راهب فيتنامى أحرق نفسه احتجاجاً على الحزب فى بلاده : وما أحسب ذلك إلا تأكيداً للقول المأثور : « الأرواح جنود مجندة .. ما تآلف منها ائتلف ، وما تنافر منها اختلف » .

ولقد شفع طالب الطب رسالة عزائه فى "نادية" وحزنه من أجلها — شفع هذه الرسالة برجاء قال فيه :

« أرجو .. مجرد رجاء إنسانى ..
أن تضع الأقصوصة المرفقة بهذه الرسالة
مع إكليل زهر على قبر الكائن الرقيق
الذى لم أره إلا بعد رحيله » .

ولقد نفذت للطالب الإنسان رجاءه .. فوضعت ، باسمه إكليلا من الزهر على قبر "نادية" . أما الأقصوصة . . فإننى أرى أن مكانها الطبيعى هنا . . فى هذا الكتاب الذى يحكى قصة حياتها ، وليس على القبر الذى يحوى جسدها .

وهذه هى « الأقصوصة » كما كتبها طالب الطب « محمد على الخزنجى » ، وقد أسماها : « قطة الكورال الصغيرة » .

« أطفئت أنوار الصالة . . لتضاء
عند أقصى اليمين المصابيح الشاحبة
الضوء ، والبيضاء ، والوردية ،
والتى فى لون السماء . . فى دائرة الضوء
الأبيض كان وجهها الطفل يتلألأ
كأضواء زورق حالم تنعكس فى عيون
نهر صغير .

« كانت شفتاها الرقيقتان ترددان
أغنية عيد دافئة . . كانتا كزهرتى
قرنفل ورديتين ترصعان صدر ثوب
جان دارك الأبيض . . أما أصابعها
الصغيرة الرقيقة فقد راحت فى طفولة

تداعب دمية .

« كانت عيناى تحتضنان عينيها الطفلتين الرائعتين فى رقة ، فى حين ينساب داخلى لحن عيد الميلاد دافئاً . . سعيداً . كانت ، وأنا ، كقطة صغيرة تدفئ صدر طفل وحيد كلما أقبل المساء .

« كنت أرى عندها السعادة التى يجب على العالم أن يهبها لكل عصافيره الصغيرة . . بلا حدود . . وبكل الحب .

نهضت من مقعدى ، ومازال أغنية عيد الميلاد تنساب فى أعماقى حلوة دافئة .

« اشتريت زهرة قرنفل بيضاء لكى أهبها لقطة الكورال الصغيرة عند نهاية الحفل . . بعدما أنهت أغنيتها الأخيرة ، وعلت أصوات الأكف تصفق فى حرارة وإعجاب .

« غمرت الأضواء جنبات الصالة التى كانت تحيا أمسية ربيع بين وريقات البنفسج .

« نهضت من مقعدى ، وأخذت أبحث عن قطتى . . قطة الكورال

الصغيرة .. حتى وجدتها .

« كانت فى فرحة الأطفال الصغيرة تبتسم . . وخطوت نحوها خطوة ثم توقفت . . فقد توقفت عيناى حزينتين باكيتين على " الكول الأبيض " الذى يحيط بعنقها الصغير الرقيق .. فقد تذكرت لحظتها ، قطة أخرى مثلها . . مثلها تماماً . . حول جيدها الرقيق . كان " كول أبيض " . . ومع ابتسامتها الوديعة كانت كلمات حزينة تدعو الأصدقاء لإحياء ذكراها .. ذكرى " نادية " .

« ترقرقت فى عينى دمعتان .. وسقطت القرنفلة البيضاء من يدى . . وبينما كنت أخطو مغادراً صالة المسرح كان لحن حزين ينساب فى أعماق .. ومن خلال ستار الدموع تراءت لى ندف من الجليد تتساقط على قبر حزين . . وحيد . . كتب على شاهده الرخامى الأسود . بحروف بيضاء :

وداعاً يا قطتى العزيزة ..

نحن . . والموت

والآن . . . ماذا فعل بى موت ابنتى . . . ولها كل هذه الصفات فى مثل هذه السن الباكرة ؟

سؤال أحسب أن كثيرين يتوقون لأن يتوفون منى على الإجابة عنه .

وأحسبهم سوف يدهشون عندما أقول لهم — بكل الأمانة والصدق — إن موتها لم يسحقنى . . . لم يطحن عظامى . . . ولم يهدم كيانى . . . مثلما سحقنى ، وهدم كيانى ، مرضها . فلقد كان العذاب الأليم الذى لقيته ابنتى على مدى أشهر سبعة ، والذى احتملته فى صبر وشجاعة على الرغم من صغر سنها — كان هذا العذاب الأليم ينعكس على بصورة مروعة جعلتنى أشعر كأننى واقع بين شقى رحى . . . وأن هذه الرحى تأخذنى ، مع كل آهة تصدر عن ابنتى ، بين شقيها فتطحننى بقسوة طاغية لاتحطم قلبى فحسب . . . بل تحطم كل شىء فى . . . حتى عظامى .

أما موتها فإنه لم يفعل بى أكثر من أنه جرحنى من الداخل جرحاً عميقاً وأليماً . لكنه لم يحطمنى مثلما كنت محطماً فى أثناء مرضها ، ولم يسحقنى مثلما كنت مسحوقاً فى تلك الأثناء . ويرجع ذلك ، فى يقينى ، إلى سببين :

أولهما : أن موتها قد وضع حداً لعذابها الأليم الذى كان قد أوقعنى بين شقى الرحى ليدورا — بكل القسوة ، واللامبالاة ، والعنف — فوق قلبى . . ولحمى . . وعظامى . . دون أن أملك حيال هذه الرحى

شيئاً أقلل به من حجم تلك القسوة التى كانت تدور بها فوق قلبى ... ولحمى . . وعظامى .

وثانيهما : أننى أومن إيماناً عميقاً — ليس من إيمان العجائز فى شيء — وإنما هو إيمان قائم على العقل ، والفهم معاً . . . بأن الموت ليس نهاية . . . بل هو بداية : بداية حياة جديدة ، وسعيدة ، ونقية . وطاهرة . . حياة لا ترى فيها ابنتى — هى ، ومن سبقوها إليها ، ومن سوف يلحقون بها — شمساً ولا زمهريراً . ولا تسمع فيها ابنتى — هى ، ومن سبقوها إليها ، ومن سوف يلحقون بها — لغواً ولاتأثيماً . . . إلا قيلاً سلاماً . . . سلاماً .

«مَثَلُ الجنَّةِ التى وُعِدَ المُتَّقون فيها أَنْهَارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهَارٌ من خَمْرٍ لذةٍ لِلشَّارِبينَ وأَنْهَارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهُمْ فيها مِن كُلِّ الثمراتِ ومَغْفِرَةٌ مِن ربِهِمْ »

* * *

«وجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً . مُتَّكئين فِيهَا عَلى الأَرائِك لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً ولا زَمْهَرِيراً . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً . عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا . وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا »

* * *

إن حياة هذه بعض صورتها — لا كل صورتها — كما فصلها القرآن الكريم ، وجددها ، وجسدها ، لجديرة بأن تملأ قلوبنا راحة ، وسكينة ، وطمأنينة على أحبائنا الذين سبقونا إليها ، وعاشوا فيها ، ونعموا بها .

وإذا كان موت ابنتي قد جرحني من الداخل جرحاً عميقاً وأليماً ... فلا يرجع ذلك إلى « الموت » في ذاته . فإنني ، كما قد أفضيت إليك ، لا أعده « الموت » نهاية .. وإنما يرجع ذلك إلى « الفراق » الذي يخلفه « الموت » وراءه كأثر مباشر من آثاره . . . وإلى إحساسي بأنني لن أعود فأرى وجه ابنتي . . ولن أسمع صوتها . . ولن أشاركها ضحكاتها ، وآمالها ، وآلامها . . . إلى أن يأذن الله لي باللحاق بها .

إن « الموت » — وهذه في رأيي هي ذروة مشكلته — يأخذ أحباءنا بعيداً . . . بعيداً جداً عنا . . ثم يضع بيننا وبينهم أسواراً وحواجز لا يمكن تخطيها إلا بإذن علوي من العزيز ، القوي ، الحكيم .

إن « الموت » ليس بالشيء الكريه الذي يحاول أولئك الذين ينقصهم الإيمان بالله ، وبالحياة الآخرة ، أن يصوروه ، أو يتصوروه ، إنما الكريه حقاً هو الافتقار إلى الإيمان « بالموت » باعتباره بداية وليس نهاية . . وباعتباره مرحلة انتقال من حال إلى حال . . ومن حياة إلى حياة . . ومن دار إلى دار . . دار أكثر سلاماً ، وصفاء ، ونقاء ، ورقياً : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

● إن التفكير يكاد يقتلني . . لكنني — وهذه هي مشكلتي — لا أستطيع أن أعيش بغيره . إن " الفكر" هو حياتي .

* * *

● الحياة رحلة استكشاف مستمرة لكن المؤسف حقًّا أن معظم ما يستكشف فيها أليم .

* * *

● سهل جدًّا أن يمشي الإنسان في طريقه . . لكن الصعب حقًّا ، هو أن يعرف الإنسان كيف يختار ذلك الطريق .

* * *

● « البحيرة » . . قصيدة « لا مرتين » الجميلة ... تعيش في أعماق . إنها نداء حار من الشاعر إلى الطبيعة التي أحبها . . . والتي يراها كثيراً ماتنسى ، وسريعاً ما تنسى ... لكي تحتفظ ، على الأقل ، بذكرى حبه لها!

* * *

● إننى أمقت "فولتير" . . . أمقته لأنه قال فى نبينا "محمد" كلمات نابية لا تصدر إلا عن "ملحد" مثله . وأمقته لموقفه المزرى من "جان جاك روسو" .
ولا خلاف على أن "فولتير" عبقرى . ولكنه عبقرى ليس فى أخلاقياته شىء واحد يستحق الاحترام .

* * *

● ولد "ألفريد دى فينى" حزيناً. وعاش حزيناً . وكان يرغب فى حب الطبيعة ، لكنه كان يراها لا تكترث به ... ولا بغيره . وكان يرغب — بقلبه — فى حب البشر. لكن — عقله — كان ينأى به بعيداً عنهم . وقد بلور "دى فينى" مشاعره كلها نحو الحياة فى هذه الكلمة الواحدة : « خلقت الطيور لتسعد ... لتحلق فى الهواء ، وتستمتع ، وتطير. . . أما الإنسان فقد خلق ليشقى ثم يموت »
ويزيد "دى فينى" هذا المعنى تأكيداً عندما يقول : يخفق الإنسان فى تحقيق أمانيه لأنه يجد نفسه وحيداً فى صلاته ... وفى حبه ... وفى تأملاته».

* * *

كلمات احببتها :

● الآن . . . دخل "الإمبراطور فرد يناند" فى مرحلة من العمر أصبحت فيها « العظمة » بالنسبة له ، « كالأنفاس» بالنسبة لأى إنسان . إنه لا يجنى منها أيةسعادة . لكنها إذا توقفت يموت !

* * *

● كانت قسمات وجهه متجهمة كقسمات وجه مسافر يعرف أنه ذاهب إلى نهاية الطريق . ولكنه لا يعرف ماذا ينتظره عند هذه النهاية !

* * *

● ولد الإنسان حراً . إلا أن حريته تعترضها دائماً عوائق تجعله يعيش فى بؤس !

* * *

● لم تعد الحياة شيئاً سهلاً . ولكنها أصبحت مغامرة مشحونة بالمخاطر .

* * *

● الوحدة . . . والشقاء . . والمسئولية : ثلاث كلمات تتلخص فيها — بصورة محددة ، وموجزة — حياة إنسان القرن العشرين .

قصة من وحى الكفاح الجزائرى

أمنية . . .

نشرت هذه القصة فى مجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٦١ — وكانت سن " نادية " عندئذ ، ١٤ عاماً فقط ! !

ترى . . ما هى أمنية حياتى ؟

كم أود أن تتحقق . . . إنها تراودنى فى نهارى ، وتداعبنى فى أحلامى . . وكلما طافت بقلبى ، سبحت فى بحر من الخيال تظلنى على شاطئيه أشجار سامقة زرعها شهداؤنا بأرواحهم ، وسقوها بدمائهم .

وتدفعنى بطولات الشهداء ، وقصصهم . . . تدفعنى دفعاً إلى الإسراع إلى هناك . . . إلى جزيرة الكفاح . ضد ذلك العدو . . المستبد . الغاصب .

لقد نسجت ، فى خيالى ، خيوط تلك القصة هناك . . فى الجزائر . . أرضى وأرض آبائى وأجدادى . . هذه الأرض التى هى جزء من فؤادى الثائر ، أغذيها بنضالى . . ونضال إخوانى . . وأرويها بدمى ، ودم الشهداء .

أنا ، الآن ، قابعة فى زنزانة صغيرة غارقة فى الظلام . . ولولا النور النابع من رضائى عن نفسى ، لقتلنى الظلام الذى عجز عن أن يحول بينى وبين أن أسرح بخاطرى لأستعيد كل ما حدث لى ، قبل أن يأتى بى إلى هنا أولئك المجرمون . . الملوثون بدماء الأطهار الذين ضحوا

بحياتهم ، وجعلوها قرباناً لاستقلال بلادهم ، وحريتها ، وخلاصها من قيود الاستعباد .

فى ليلة ما زلت أذكرها . . وسأظل أذكرها إلى الأبد . . جاءنى أبى والدماء تنزف من صدره بغزارة كأنها وسام شرف طالما تاقت إليه روحى الثائرة . جزعت من هول المنظر . لكن أبى منعنى من الاستسلام للجزع . . قال لى ، وأنفاسه تهن وتتقطع :

ــ ابنتى . . إننى أعرف أنك لست محتاجة إلى من يحثك على الكفاح ، وعلى بذل روحك دفاعاً عن أرضك . ووصيتى لك أن تحاربى الأعداء . . وأن تظلى تحاربينهم مهما كلفك هذا من ثمن .

ومال رأس أبى . . فأسندته إلى صدرى ، وقلبى ينبض بأكبر الإجلال ، وأكبر الحب . . ويدق ، فى نفس الوقت ، دقات الانتصار والثأر . . وقبل أن يلفظ أبى آخر أنفاسه ، قال لى بكلمات كانت ترتعش . . وتتكسر بين شفتيه :

ــ لا تحزنى علىّ يا بنيتى . . . فإننى أشكر الله من كل قلبى أن هيأ لى فرصة لقائه . . شهيداً فى سبيله . . وفى سبيل الدفاع عن بلدى . . .

ثم . . . ثم صعدت روحه الطاهرة فى دعة وسلام إلى السماء للقاء ربها .

* * *

لم أبك . . ولم أحزن . . . فقد أحسست أنه ذهب إلى هناك . . . إلى حياة أكثر شفافية ، وأكثر نقاء . . وأحسست أن روحه الطاهرة تطلّ علىّ ، وتنير لى الطريق . إن دماءه التى رأيتها كالوسام على صدره ، تشعل حماسى .

وصممت على الانتقام والثأر . . . وأى انتقام ، وأى ثأر ، يمكن أن يرضى أبى فى مثواه الأخير . . إلا أن أجعل عمرى كله فداء

لوطنى حتى يتحرر . . . حتى أرى آخر كلب من أولئك المستعمرين الطغاة ، يسقط أمام عينى . . . ساعتها سوف أحس أن قطرات الدم الطاهرة التى انبثقت كالنور من صدر أبى لم تذهب سدى . . وساعتها ، فقط ، سوف أحس أننى سعيدة . . وراضية .

وعرفت طريقى . . . .

تطوعت فى فرقة المقاومة الشعبية . . . وكانت المهمة التى أسندها لى قائد الفرقة ، هى التجسس على الأعداء للتعرف على كل حركاتهم . . وكل سكناتهم .

وكان على — لكى أقوم بهذه المهمة على خير وجه — أن أحاول ، أولا ، التقرب من هؤلاء الأعداء بالتظاهر بأننى مستعدة لأن أنقل إليهم أخبار المقاومة . . . وعن هذا الطريق ، أستطيع أن أتعرف على خططهم ، وتحركاتهم ، وأنقلها إلى قائد فرقتى .

استرسلت فى تفكير عميق ، حتى اهتديت إلى طريقة . . . رأيت أنها أقصر الطرق .

كان ذلك عندما لمحت ضابطاً فرنسياً يجلس وحيداً فى حانة من الحانات . . كان يشرب الخمر فى سعادة المنتصر . . . واجتهدت عندما دخلت إلى الحانة ، ألا أنظر إليه . . . وتظاهرت بأننى لم أره إلا عندما أصبحت بجواره ، وأجبت على ابتسامته لى ، بابتسامة مماثلة شجعته على دعوتى لمشاركته جلسته . . وسارعت إلى قبول دعوته . فقد كانت تلك هى خطتى . .

وجلست والضابط الفرنسى ، نتجاذب الحديث من هنا ، ومن هناك . . . وعندما لم يعد هناك ما نقوله ، ودعته على موعد فى السابعة من اليوم التالى . . .

وفى اليوم التالى ، تعمدت أن أذهب متأخرة عن موعدى . . . ذهبت

إليه فى السابعة والنصف بدلا من السابعة . . واعتذرت إليه قائلة :
ــ آسفة جداً لتأخرى عن الموعد . . . فقد فتشنى فى الطريق جندى فرنسى ، ظناً منه أنه سوف يجد معى شيئاً . لست أدرى لماذا تظنون أن كل الجزائريين يعادونكم ؟ ؟
فاعتدل الضابط الفرنسى فى جلسته ، وسألنى وهو يبتسم فى فرح :
ــ ولكن . . . ألا تحبين بلدك ؟ ؟
ــ بل أحبه . . . ولكننى ، فى نفس الوقت ، لا أحب أن أموت . . . أريد أن أعيش سعيدة بعيداً عن هؤلاء المجانين الذين يقتلون أنفسهم ببلاهة .
ــ يبدو أنك مع الفرنسيين ؟ ؟
ــ لقد ولدت ، وعشت ، وكبرت على هذه الأرض . . . أنا أراها أرضاً فرنسية . ولست أفهم لماذا يسعى الجزائريون إلى الخراب . . وإلى قتل أنفسهم ، وقتل الآخرين . .
ــ يبدو أنك مع الفرنسيين فعلا . . . ولكن ؟ ؟
ــ ولكن ماذا . . . ؟ ؟ دعنا بالله من هذا الحديث . . إننى فقط تضايقت من التفتيش . . يجب أن يعرف الفرنسيون أصدقاءهم من أعدائهم .
واستجاب الضابط الفرنسى لرغبتى . . ورحنا نتجاذب الحديث فى موضوعات كثيرة أخرى لا علاقة لها بالقصة التى كنت قد اختلقتها : حتى إذا حان موعد افتراقنا افترقنا على موعد آخر . . .
وتكررت اللقاءات بيننا ، وعندها . . لم يتردد الضابط الفرنسى فى أن يصارحنى بحبه لى . . . وكان هذا هو طرف الخيط الذى بدأت من عنده خطتى . . .
أظهرت له أننى ، مثله تماماً ، هائمة بحبه . . . وتماديت فى

تمثيل دور العاشقة حتى استطعت أن أنجح فى كسب ثقته بى . . . واطمئنانه إلى .

وذات ليلة من ليالى لقائنا . . .وكنا جالسين فى نفس الحانة التى لقيته فيها أول مرة ، أخذ الضابط الفرنسى يشرب كميات من الخمر لم يشربها فى أى لقاء مضى . . لقد شرب كثيراً . . . كثيراً جداً . . . ثم نظر فى ساعته فجأة ، وقال لى :

ــ لا بد أن أنصرف الآن .

ــ لماذا ؟ ؟

فخفض صوته حتى كاد أن يكون همساً ، وهو يقول لى :

ــ لأننا سنهاجم موقعاً للجزائريين قريباً من هذا الجبل . . سوف نبيدهم يا حبيبتى . . . وسوف نلتقى هنا غداً فى السابعة لنشرب نخب إفنائهم .

وعاد الضابط الفرنسى يقول : وهو يتأهب للانصراف :

ــ أليس شيئاً بديعاً حقاً أننى هنا ، الآن ، أشرب الخمر . . . وأن أكون ، بعد قليل ، هناك . . . أشرب من دماء أولئك المتمردين . . ثم نلتقى غداً لنشرب الخمر من جديد . إن حياتى كلها شراب فى شراب . . لقد قالوا لنا هذا عندما أتوا بنا من باريس . . قالوا لنا : إنكم ذاهبون فى رحلة خفيفة ، وستجدون هناك أجود أنواع الخمر فى انتظاركم .

وودعنى الضابط الفرنسى . . . وانصرف للقيام بمهمته .

أما أنا . . فقد أسرعت إلى قائد فرقتى ، وألقيت إليه بالخبر فى الوقت المناسب .

وفى اللحظة الحاسمة . . . فى اللحظة التى كان فيها الفرنسيون يهجمون على موقعنا . . كنا على أتم الاستعداد لمواجهتهم . رأيناهم وهم يقتربون . . . ويقتربون . . وكنت معهم . . مع فرقتى فى مواجهة الأعداء .

وانطلقت نيران مدافعنا تحصد المهاجمين . لقد أخذناهم على غرة ، فلم يفلت منهم عدد يذكر . . . .

وكان النصر حليفنا . . . .

وفى الموعد الذى كان بيننا . . . فى السابعة من مساء اليوم التالى ، ذهبت إلى هناك . . إلى الحانة التى كنا بها نلتقى . لكننى لم أجده . . . ووجدت بدلا منه عدداً من الضباط والجنود الذين كانوا يشربون ويعربدون . وأشعلت رؤيتى لهؤلاء الضباط والجنود ، نيران الثأر فى صدرى . وأحسست ، لحظتها ، أن أحداً منهم لا ينبغى أن يعيش . . وفى نفس اللحظة ، وجدتنى ألقى بقنبلة يدوية كانت معى وسط هؤلاء الفرنسيين . وانفجرت القنبلة محدثة دويًّا يصم الآذان . وعندئذ أحسست بسعادة لا توصف أخذت تغمرنى وأنا أرى أشلاء أعداء بلادى تتناثر هنا وهناك . فى حين تحولت الحانة نفسها إلى بركة من الدماء .

وبينما كان عدد آخر من الجنود والضباط الفرنسيين يدخلون إلى الحانة مهرولين ليروا ماذا حدث . . . كنت أنا أغادرها بأقصى ما أملك من سرعة . . واندفعت متجهة إلى شارع جانبى حتى أستطيع أن أنجو بنفسى من بطش أولئك المجرمين . لكن محاولتى لم تفلح . . . فقد التوت ساقى فجأة ، فسقطت على الأرض ، أعانى ألماً شديداً . . . ولم أفق إلا لأجد نفسى مشدودة الوثاق ، وقد أحاط بى عدد من الجنود والضباط . . كان من بينهم ذلك الضابط المخدوع الذى حسبنى مع الفرنسيين . . وضد بلدى . وفجأة وجدته يتجه نحوى فى شراسة ووحشية ظاهرتين . . وأخذ يركلنى بقدمه ، ويضربنى على وجهى بأقصى ما لديه من قسوة . وراح يتهددنى بكلمات حانقة . . تفيض غضباً وشراً :

— سأنتقم منك شر انتقام أيتها الجزائرية اللعينة . . الآن فقط عرفت من أنت . . وما هو الدور الحقيقى الذى كنت تلعبينه .

— يسعدنى هذا أيها الفرنسى المخدوع . . . يسعدنى أن أكون مثلا

لكل جزائرى . . وكل جزائرية . وسوف تتحول كل صفعة أتلقاها منكم إلى مئات الرصاصات يوجهها إخوانى إلى رؤوسكم وصدوركم . . . أكنت تظننى أكره بلدى وأهلى؟ ؟ ! !

أما إنك لغبى حقاً ! !

وثارت ثائرة الضابط الفرنسي أكثر . . وأكثر . . فركلنى بحذائه فى بطنى ركلة قوية آلمتنى إلى حد أن كادت الدموع تطفر من عينى . ولكننى حبست دموعى بين جفونى حتى لا أجعلهم يشمتون بى — وقلت فى حماس أغالب به آلامى وضعفى :

— أيها الأنذال . . إننى أقول لكم إنكم لن تذوقوا فى بلادنا طعماً للراحة . . لن تنعموا فيها . . ولن تنعموا بها . إننا لن نتنازل عن حقنا أبداً حتى ترفرف حمائمنا فى سلام على أرضنا . . . اخرجوا أيها المجرمون من بلادنا . . إنها أرض عربية . . عربية . . عربية .

ولم يملك الضابط الفرنسي نفسه ، فصرخ فى وجهى قائلاً :

— اخرسى . . . .

ثم انهال علي ، هو ومن كان معه ، ركلا وضرباً . حتى أحسست كأن روحى قد زهقت . . ولم أشعر إلا وهم يحملوننى ليقذفوا بى داخل سيارة جيب . . لتأتى بى إلى هنا . . . إلى هذه الزنزانة الضيقة المظلمة .

* * *

والآن . . . أرانى محتاجة إلى أن أتوقف برهة لأسجل ما أظنه جديراً بالتسجيل :

فعندما دخلت إلى الزنزانة تقاذفنى شعوران ثارا داخل نفسى كالأمواج الجامحة : أأنا سعيدة بما حدث . . أم غير سعيدة ؟

وكانت الإجابة :

— إننى سعيدة . . وغير سعيدة . سعيدة لأننى فعلت شيئاً من

أجل بلدى . . وغير سعيدة لأننى حرمت من فرصة مواصلة النضال مع زملائى وزميلاتى .

وما كدت أن أنتهى من الإجابة عن هذا السؤال ، حتى تقدم منى أحد الجنود الفرنسيين وأخذ يفك وثاقى ، وفجأة ارتعشت يداه . . فقد دوى بجوار المكان انفجار قنبلة اهتزت له أبواب الزنزانة وجدرانها اهتزازاً عنيفاً . وهنا شعرت بالحزن وبالأسى يملآن جوانحى . . . فقد أحسست أن مكانى ، فى هذه اللحظة ، إنما هو هناك مع زملاء النضال ، وليس بداخل هذه الزنزانة المعتمة التى تباعد بينى وبينهم . . . وتمنيت الحياة : . تمنيت أن أعيش حتى اليوم الذى تتطهر فيه أرض بلادى من دنس المستعمرين الغاصبين ، وطغيانهم ، واستبدادهم !!

وبينما كان الجندى الفرنسى يجذب باب الزنزانة الثقيل ليغلقه على أنا . . والظلام . . والوحدة — كنت ، من ناحيتى ، أترنم بقول أبى القاسم القاسم الشابى :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلى
ولا بد للقيد أن ينكسر »

انطلقت . . .

أول يوليو سنة ١٩٦٢ (١٥ سنة)
بمناسبة إعلان استقلال الجزائر . . .
البلد العربى البطل .

انطلقت محطماً قيود الردى . .
ساخراً من شرور العدا
وضيت من قبرى
أشهد فجر نصرى
. . . وانطلقت

* * *

ورأيت الأرض الجرداء
تغدو جنات غناء
والزهر الأبيض والأحمر
والنبت الأخضر والأصفر
يهتز ليحيي ذكراى
يهتز ليعلن للدنيا : أن العربى هو الأكبر

* * *

ورأيت عبوس الأقدار
ورأيت شرور الأفكار
ولمحت شعوباً مطوية

تصحو لصياح الحرية
تبسم عن صبر وإباء
تعتز بذكرى الشهداء
ترتج لتحيي ذكراى
ترتج لتعلن للدنيا : دم الشهداء هو الأزهر .

* * *

. . . وانطلقت
عائداً نحو قبرى
بعد إذ أبصرت فجر نصرى
فوق الشفاه الراضية
فوق السدود العالية
فى مطلع الفجر السعيد
فى الطفل . . فى الأم . . فى الأب . . فى الجيل الجديد
فى مشرق النصر المجيد



شعر منثور

إشراقة الوجود

٢١ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة)
تحية لأمها . . فى عيد الأم .

سألت البلابل . . . والأغصان . . والزهور
عن سر تلك الألحان والحبور
وسر ذلك العطر الشذى المنثور
إنا نحيي تلك الشمعة التى تحترق لتهب النور
وننحنى ، فى خشوع ، لجلال الأمومة . . ولأطهر شعور

* * *

إنه عيدك يا من منحت . . ومنحت . . فرسمت الابتسام على الثغور
وعلوت بتضحياتك . . حتى سموت على البدور
وكنت دائماً نعم « الحادى » فى طريق الأشواك والصخور
فأوصى الخالق بك لرحمتك . . وحنانك . . النابعين من الصدور
فيا لله . . ماذا يستطيع القلم ، وما عساها أن تقول السطور ؟
فمهما كتبت . . . وكتبت . . على مر الأيام والشهور
فلن أستطيع « يا إشراقة الوجود » أن أعبر عما أريد أن أقول .

شعر منثور :

تحدى . .

(٦ فبراير ١٩٦٣)

يا من هَوَتْ بقلبي حيرة مقلتيك
يا من لوعتني ضمة حاجبيك
لاتتركى الأيام تطبع الأحزان فى عينيك
لا تتركى القلب يئن . . والدموع تجرى
ولا تجعلي الهموم تحنى كتفيك

* * *

اشمخى بهامتك . . وارفعى أهدابك وتحدّى
واعرضى عن الهموم . . واصنعى منها التمنّى
ولا تستسلمى لليأس . . ومن سواد لونه فرّى

* * *

ازرعى الأمل فى قلبك . . وعلى أنغامه غنّى
وبالابتسامات أضيئى وجنتيك
فيشع النور منها ليملأ مقلتيك
فتضمك الدنيا بجناحيها وتحنو عليك
إنها أمنية مهجة هزّتها حيرة عينيك
فحققى الأمل فيك . . ليعود الصفاء إليها وإليك . ـ

هارب فى السماء . . .

(نشرت فى مجلة مدرسة نوتردام
ديزابوتر)
(مايو سنة ١٩٦٤)

بلبل سابح فى السموات العاليه
باعثاً أنغامه الشجية الباكيه
متسائلاً عما قد يحمل الغيب إليه
من أحداث مكفهرة قد تأتى عليه
فيسرع بضربات جناحيه خائفاً
ومن المصير المجهول يولى هارباً
فيزداد فى الارتفاع آملا . . متوهماً
وقلبه الواهن يدق لاهثاً . . واجفاً

* * *

ولكن . . أنىّ له بالاختفاء
ولا يوجد من مخبأ غير السماء
فهيهات له بالفرار . .
مهما طالت به الأسفار

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٧٩٧ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١